

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء السابع والعشرون

سورة الذاريات

من الآية ٣١ حتى نهايتها الآية ٦٠

وسور

الطور- النجم- القمر

الرحمن- الواقعة- الحديد

obeikandi.com

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مَسُومَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قال إبراهيم (عليه السلام): ما شأنكم أيها المرسلون؟ قالوا: أرسلنا ربنا لنتقم من قوم مجرمين - وهم قوم لوط - ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ فيهلكوا تحت الحجارة ﴿ مَسُومَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ مخصصة لكل من أسرف في الشذوذ الحرام ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أمرنا لوطاً ومن آمن معه بالخروج من القرية ﴿ فَمَا وَجَدْنَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وهم أهل لوط ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ جعلنا هلاكها عبرة وعظة للمؤمنين الذين يخافون عذاب ربهم الأليم .

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانَهُ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُم تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِّن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتَصَرِّينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمِ نُوحٍ مِّن قَبْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ثم نقص الآيات عبراً أخرى للمؤمنين الذين يخافون عذاب العصيان، فقد أرسل رب العالمين موسى (عليه السلام) إلى فرعون بآيات بينات ﴿ فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانَهُ ﴾ فأعرض وارتكن إلى ملكه ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ تعدياً على الحق وتكبراً وجحوداً ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ ﴾ فألقيناهم ﴿ فِي الْيَمِّ ﴾ في البحر ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أتى بما يلام عليه ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ رفضوا دعوة رسولهم هود فأرسلنا عليهم ريحاً لا تخلف وراءها حياة، أى مهلكة ﴿ مَا تَذَرُ مِّن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ ﴾ لم تترك وراءها شيئاً إلا جعلته أثراً،

أى قضت عليه ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ الذين رفضوا دعوة رسولهم صالح (ﷺ) ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن يأذن الله بهلاككم ﴿فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا وعقروا الناقة ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ استأصلتهم صاعقة الهلاك، قرعتهم ورجفتهم ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ لم تقم لهم قائمة ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ بل غلبوا ودمروا ﴿وَقَوْمِ نوحٍ مِنْ قَبْلِ﴾ رفضوا دعوة رسولهم، فأغرقهم الطوفان ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ .

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩) ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥١) ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (٥٢) ﴿أَتَأْتُوا صَوَابًا بِئْسَ لَكُمْ بِهِ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٥٣)

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ بقدرة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قال زغلول النجار: [في الثلث الأول من القرن العشرين لاحظ الفلكيون عملية توسع الكون التي دار حولها جدل طويل حتى سلم العلماء بحقيقتها^(١)، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى تلك الحقيقة قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة بقول الحق (تبارك وتعالى): ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾].

(١) وانطلاقاً من هذه الملاحظة الصحيحة، نادى كلٌّ من علماء الفلك والفيزياء الفلكية والنظرية، بأننا إذا عدنا بهذا الاتساع الكوني إلى الوراء مع الزمن فلا بد أن تلتقى كل صور المادة والطاقة الموجودة في الكون (المدرَك ومنها وغير المدرَك) وتتكدس على بعضها البعض في جرم ابتدائي واحد يتناهى في الصغر إلى ما يقرب من الصفر أو العدم، وتكتمش في هذه النقطة أبعاد كلِّ من المكان والزمان حتى تتلاشى (مرحلة الرتق).

وهذا الجرم الابتدائي كان في حالة من الكثافة والحرارة تتوقف عندهما كل القوانين الفيزيائية المعروفة، ومن ثم فإن العقل البشرى لا يكاد يتصورهما، فانفجر هذا الجرم بأمر الله (تعالى) في ظاهرة يسميها العلماء عملية «الانفجار الكوني العظيم»، ويسميها القرآن الكريم باسم «الفتق»، فقد سبق القرآن الكريم كل المعارف الإنسانية بالإشارة إلى ذلك الحدث الكوني العظيم من قبل ألف وأربعمائة من السنين بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وتشير دراسات الفيزياء النظرية في أواخر القرن العشرين إلى أن جرمًا بمواصفات الجرم الابتدائي للكون عندما ينفجر يتحول إلى غلالة من الدخان الذي تخلقت منه الأرض وكل أجرام السماء، وقد سبق القرآن الكريم بألف وأربعمائة سنة كل المعارف الإنسانية، وذلك بإشارته إلى مرحلة الدخان في قول =

= الحق (تبارك وتعالى): ﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين ﴿٢﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وللأرضِ انبثي طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴿٣﴾ فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴿٤﴾ [فصلت: ٩-١٢]

بدايات تعرف الإنسان على ظاهرة توسع الكون

إلى مطلع العقد الثاني من القرن العشرين، ظل علماء الفلك ينادون بثبات الكون وعدم تغييره، في محاولة يائسة لنفي الخلق والتكر للخالق (سبحانه وتعالى) حتى ثبت عكس ذلك بتطبيق «ظاهرة دوپلر» على حركة المجرات الخارجة عن مجرتنا، ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان العالم النمساوي «دوپلر - C. Doppler» قد لاحظ أنه عندما يصل إلى عين الراصد ضوء منبعث من مصدر متحرك بسرعة كافية، يحدث تغير في تردد ذلك الضوء، فإذا كان المصدر يتحرك مقترباً من الراصد فإن الموجات الضوئية تتضاغط وينزاح الضوء المدرك نحو التردد العالي (أى نحو الطيف الأزرق)، وتعرف هذه الظاهرة باسم «الزحزحة الزرقاء»، وإذا كان المصدر يتحرك مبتعداً عن الراصد، فإن الموجات الضوئية تتمدد وينزاح الضوء المدرك نحو التردد المنخفض (أى نحو الطرف الأحمر من الطيف)، وتعرف هذه الظاهرة باسم «الزحزحة الحمراء»، وقد اتضحت أهمية تلك الظاهرة عندما بدأ الفلكيون في استخدام أسلوب التحليل الطيفي للضوء القادم من النجوم الخارجة عن مجرتنا في دراسة تلك الأجرام السماوية البعيدة جداً عنا.

ففي سنة ١٩١٤م أدرك الفلكي الأمريكي «سلايفر - Slipher» أنه بتطبيق ظاهرة دوپلر على الضوء القادم إلينا من النجوم، في عدد من المجرات البعيدة عنا، ثبت له أن معظم المجرات التي قام برصدها تتباعد عنا وعن بعضها البعض بسرعات كبيرة، وبدأ الفلكيون في مناقشة دلالة ذلك، وهل يمكن أن يشير إلى تمدد الكون المدرك، بمعنى تباعد مجراته عنا وعن بعضها البعض بسرعات كبيرة؟

وبحلول سنة ١٩٢٥م، تمكّن هذا الفلكي نفسه (Slipher) من إثبات أن أربعين مجرة قام برصدها تتحرك فعلاً في معظمها بسرعات فائقة متباعدة عن مجرتنا «سكة التبانة»، وعن بعضها البعض.

وفي سنة ١٩٢٩م، تمكّن الفلكي الأمريكي الشهير «إدوين هبل - Edwin Hubble» من الوصول إلى الاستنتاج الفلكي الدقيق الذى مؤداه: أن سرعة تباعد المجرات عنا تتناسب تناسباً طردياً مع بعدها عنا، والذى عرف من بعد باسم «قانون هبل Hubble's Law» وتطبيق هذا القانون تمكّن «هبل» من قياس أبعاد العديد من المجرات، وسرعة تباعدها عنا، وذلك بمشاركة من مساعده «ملتون هيوماسون - Milton Humason» الذى كان يعمل معه فى مرصد «جبل ولسون» بولاية كاليفورنيا، وذلك فى بحث نشره معاً فى سنة ١٩٣٤م.

وقد أشار تباعد المجرات عنا وعن بعضها البعض إلى حقيقة توسع الكون المدرك، التى أثارَت جدلاً واسعاً بين علماء الفلك، الذين انقسموا فيها بين مؤيد ومعارض، حتى ثبتت ثبوتاً قاطعاً بالعديد من المعادلات الرياضية والقراءات الفلكية فى صفحة السماء.

ففى سنة ١٩١٧م، أطلق «ألبرت أينشتاين - A. Einstein» نظريته عن النسبية العامة لشرح طبيعة الجاذبية، وأشارت النظرية إلى أن الكون الذى نحيا فيه غير ثابت، فهو إما أن يتمدد أو ينكمش وفقاً لعدد من القوانين المحددة له، وجاء ذلك على عكس ما كان «أينشتاين» وجميع معاصريه من الفلكيين وعلماء الفيزياء النظرية يعتقدون، انطلاقاً من محاولاتهم للياسة لمعارضة الخلق، وقد أصاب «أينشتاين» الذعر عندما اكتشف أن معادلاته تنبئ - رغم أنه - بأن الكون فى حالة تمدد مستمر؛ ولذلك عمد إلى إدخال معامل من عنده أطلق عليه اسم «الثبات الكونى»، ليلغى حقيقة تمدد الكون من أجل الادعاء بثباته واستقراره، ثم عاد ليعترف بأن تصرفه هذا كان أكبر خطأ علمي اقترفه فى حياته.

= وقد قام العالم الهولندي «وليام دى سِتر - William de Sitter» بنشر بحث في السنة نفسها (١٩١٧م) استنتج فيه تمدد الكون انطلاقاً من النظرية النسبية ذاتها. ومنذ ذلك التاريخ، بدأ الاعتقاد في تمدد الكون يلقي القبول من أعداد كبيرة من العلماء، فقد أجبرت ملاحظات كل من «سلايفر» (١٩١٤م)، و«دى سِتر» (١٩١٧م)، و«هبل» ومساعدته «هيو ماسون» (١٩٣٤م) جميع الفلكيين الممارسين، وعددًا من المشتغلين بالفيزياء النظرية، وفي مقدمتهم «ألبرت أينشتاين»، ومجموعة البحث العلمي بجامعة «كامبردج»، والمكونة من كل من «هيرمان بوندى - Herman Bondi» و«توماس جولد - Thomas Gold» و«فريد هويل - Fred Hoyle»، التي ظلت إلى مشارف الخمسينيات من القرن العشرين تنادى بثبات الكون - أجبرتهم على الاعتراف بحقيقة توسع الكون المدرك.

وفي ٨ نوفمبر سنة ١٩٨٩م، أطلقت وكالة الفضاء الأمريكية مركبة فضائية باسم «مكتشف الخلفية الإشعاعية للكون»، وذلك في مدار على ارتفاع ستمائة كيلو متر حول الأرض بعيداً عن تأثير كل من السحب والملوثات في النطق الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، وقد قام هذا القمر الصناعي بإرسال ملايين الصور والمعلومات إلى الأرض عن آثار الدخان الأول الذي نتج عن عملية الانفجار العظيم للكون من على بعد عشرة مليارات من السنين الضوئية، وهي حالة دخانية معتمة سادت الكون قبل خلق الأرض والسموات، فسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

كذلك، فإن التقنيات المتطورة من مثل الصواريخ العابرة لمسافات كبيرة في السماء، والأقمار الصناعية التي تطلقها تلك الصواريخ، والأجهزة القياسية والتسجيلية الدقيقة التي تحملها، قد ساعدت على الوصول إلى تصوير الدخان الكوني الأول الذي نتج عن عملية الانفجار العظيم، والذي وجدت بقايا أثرية له على أطراف الجزء المدرك من الكون، وعلى أبعاد تصل إلى عشرة مليارات من السنين الضوئية لتثبت دقة التعبير القرآني بلفظة دخان التي وصف بها حالة الكون قبل خلق السموات والأرض. وسبحان الله الخالق الذي أنزل في محكم كتابه قبل أكثر من ألف وأربعمائة من السنين قوله الحق: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

تشير هذه الآية الكريمة إلى عدد من الحقائق الكونية التي لم تكن معروفة لأحد من الخلق وقت تنزل القرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعد تنزله، منها: أولاً: إن السماء بناء محكم التشييد، دقيق التماسك والترابط، وليست فراغاً كما كان يعتقد إلى عهد قريب

وقد ثبت علمياً أن المسافات بين أجرام السماء مليئة بغلالة رقيقة جداً من الغازات التي يغلب عليها غاز الإيدروجين، وينتشر في هذه الغلالة الغازية بعض الجسيمات المتناهية في الصغر من المواد الصلبة، على هيئة غبار دقيق الحبيبات، يغلب على تركيبه ذرات من الكالسيوم، والصدوديوم، والبوتاسيوم، والتيتانيوم، والحديد، بالإضافة إلى جزيئات من بخار الماء، والأمونيا، والفورمالدهايد، وغيرها من المركبات الكيميائية.

وبالإضافة إلى المادة التي تملأ المسافات بين النجوم، فإن المجالات المغناطيسية تنتشر بين كل أجرام السماء لترتبط بينها في بناء محكم التشييد، متماسك الأطراف، وهذه حقيقة لم يدركها العلماء إلا في القرن العشرين، بل في العقود المتأخرة منه وعلى الرغم من رقة كثافة المادة في المسافات بين النجوم، والتي تصل إلى ذرة واحدة من الغاز في كل سنتيمتر مكعب تقريباً من المسافات البينية للنجوم، وإلى أقل من ذلك بالنسبة للمواد الصلبة «الغبار الكوني»، إذا ما قورن بحوالي مليون مليون مليون جزيء (١٨١٠) =

= في كل ستيومتر مكعب من الهواء عند سطح الأرض ، فإن كمية المادة في المسافات بين النجوم تبلغ قدرًا مذهلاً للغاية ، فهي تقدر في مجرتنا «سكة التبانة» وحدها بعشرة بلايين ضعف ما في شمسنا من مادة ، مما يمثل حوالى ٥٪ من مجموع كتلة تلك المجرة .

ثانياً: أن في الإشارة القرآنية الكريمة «والسما بينناها بأيد . . .» أى بقوة وحكمة واقتدار تلميحاً إلى ضخامة الكون المذهلة ، وإحكام صنعه ، وانضباط حركاته ، ودقة كل أمر من أموره ، وثبات سننه ، وتماسك أجزائه ، وحفظه من التصدع أو الانهيار ، فالسما لغة هي كل ما علاك فأطلق ، ومضموناً هي كل ما حول الأرض من أجرام السماء ومادتها وطاقتها ، التى لا يدرك العلم إلا جزءاً يسيراً منها ، ويحصى العلماء أن بالجزء المدرك من السماء الدنيا مائتى بليون من المجرات ، بعضها أكبر كثيراً من مجرتنا «درب اللبانة أو سكة التبانة» ، وبعضها أصغر قليلاً منها ، وتراوح أعداد النجوم فى المجرات بين المليون والعشرة ملايين الملايين ، وتمر هذه النجوم فى مراحل من النمو مختلفة (الميلاد ، والطفولة ، والشباب ، والكهولة ، والشيوخوخة ، ثم الوفاة) ، وكما أن لأقرب النجوم إلينا «وهى شمسنا» توابع من الكواكب والكويكبات ، والأقمار ، وغيرها ، فإن القياس يقتضى أن للنجوم الأخرى توابع قد اكتشف عدد منها بالفعل ، ويبقى الكثير مما لم يتم اكتشافه بعد .

ثالثاً: تشير هذه الآية الكريمة إلى أن الكون الشاسع الاتساع ، الدقيق البناء ، المحكم الحركة ، والمنضبط فى كل أمر من أموره ، والثابت فى سننه وقوانينه ، قد خلقه الله (تعالى) بعلمه وحكمته وقدرته ، وهو (سبحانه) الذى يحفظه من الزوال والانهيار ، وهو القادر على كل شئ . والجزء المدرك لنا من هذا الكون شاسع الاتساع بصورة لا يكاد عقل الإنسان يدركها « . . . إذ المسافات فيه تقدر ببلايين السنين الضوئية» ، وهو مستمر فى الاتساع اليوم وإلى ما شاء الله ، والتعبير القرآنى « . . . وإنا لموسعون» يشير إلى تلك السعة المذهلة ، كما يشير إلى حقيقة توسع هذا الكون باستمرار إلى ما شاء الله ، وهى حقيقة لم يدركها الإنسان إلا فى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين ، حين ثبت لعلماء كل من الفيزياء النظرية والفلك أن المجرات تتباعد عنا وعن بعضها البعض بسرعات تتزايد بتزايد بعدها عن مجرتنا ، وتقرب أحياناً من سرعة الضوء (المقدرة بحوالى ثلاثمائة ألف كيلومتر فى الثانية) ، والمجرات من حولنا تتراجع متباعدة عنا .

رابعاً: تشير ظاهرة توسع الكون إلى تخلق كل من المادة والطاقة ، لتملاً المساحات الناتجة عن هذا التوسع ؛ وذلك لأن كونا تنتشر المادة فيه بكثافات متفاوتة ، ولكنها متصلة بغير انقطاع ، فلا يوجد فيه مكان بلا زمان ، كما لا يوجد فيه مكان وزمان بغير مادة وطاقة ، ولا يستطيع العلم - حتى يومنا هذا - أن يحدد مصدر كل من المادة والطاقة اللتين تملآن المساحات الناتجة عن تمدد الكون ، بتلك السرعات المذهلة ، ولا تأويل لها إلا الخلق من العدم .

خامساً: أدى إثبات توسع الكون إلى التصور الصحيح بأننا إذا عدنا بهذا التوسع إلى الوراء مع الزمن ، فلا بد أن تلتقى كل صور المادة والطاقة كما يلتقى كل من المكان والزمان فى نقطة واحدة ، وأدى ذلك إلى الاستنتاج الصحيح بأن الكون قد بدأ من نقطة واحدة بعملية انفجار عظيم ، وهو مما يؤكد أن الكون مخلوق له بداية ، وكل ما له بداية فلا بد أن ستكون له فى يوم من الأيام نهاية ، كما يؤكد حقيقة الخلق من العدم ؛ لأن عملية تمدد الكون تقتضى خلق كل من المادة والطاقة بطريقة مستمرة - من حيث لا يدرك العلماء - وذلك لتملاً (فى التو والحال) المسافات الناشئة عن عملية تباعد المجرات عن بعضها البعض بسرعات مذهلة ، وذلك لكى يحتفظ الكون بمستوى متوسط لكثافته التى نراه بها اليوم ، وقد أجبرت هذه الملاحظات علماء الغرب على هجر معتقداتهم الخاطئة عن ثبات الكون ، والتى دافعوا طويلاً عنها ، انطلاقاً من ظنهم الباطل بأزلية الكون وأبديته - «تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم» ج ٣ صفحات: ٤١٦ - ٤٢٢ - من إصدارات مكتبة الشروق الدولية .

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ مهدناها للاستقرار عليها ﴿فَنَعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ وخلقنا من كل حيوان ونبات، وغير ذلك مما فى علم الله، زوجين ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قدرة الله فترجعون وتلجأون إليه ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فأسرعوا إلى جناب الله إني نذير مبين لكم ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ولا تشركوا معه إلهاً آخر ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ولكن القوم لم يتعظوا كما حدث مع الرسل السابقين، فاتهمتهم أقوامهم تارة بالسحر، وتارة بالجنون ﴿أَتَوْاصُوا بِهِ﴾ هل أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول المجحف؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ بل هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم فنطقوا كفرةً.

﴿قَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بَمَلُومٍ ۝٥٤﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ۝٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾

فأعرض عنهم ولا لوم عليك ﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ واستمر في تذكير المؤمنين؛ لأن الذكري لا تنفع إلا المؤمنين ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ بحمل الإنس أمانة الخلافة على الأرض، وإقامة الحق ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ كما يحتاج شركاء الباطل الآخرون^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ إن الله وحده المتكفل برزق العباد وهو صاحب القدرة الكلية ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ أما الذين كفروا فلهم نصيب من العذاب ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ من الأمم السابقة ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ فلا يستعجلون إنزال العذاب؛ لأنه واقع يوم الحساب ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ فويل لهم من يوم الحساب، وما وعدهم الله فيه من العذاب.

(١) حتى اليوم، يعبد مئات الملايين من البشر فى آسيا آلهة يضعون لها طعاماً وشراباً، وربما كان لبعض الناس فى إفريقيا والسكان الأصليين فى أمريكا أفكار مشابهة عن الآلهة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ ١ ﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿ ٢ ﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴿ ٣ ﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿ ٤ ﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿ ٥ ﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿ ٦ ﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿ ٧ ﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿ ٨ ﴾ ﴿

﴿ وَالطُّورِ ﴾ جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى (ﷺ) في سيناء ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ وكتاب من عند الله، منه التوراة والزيور والإنجيل والقرآن ﴿ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ في صحف منشورة للقراءة ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ بالملائكة والعمار والحجاج، وهو الكعبة بيت الله الحرام ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ المملوء ماء، أو الموقد ناراً؛ حيث إن من عجائب صنع الله أن تحت مياه المحيطات ناراً، كما قال زغلول النجار في تفسيره العلمي^(١). يقسم رب العالمين بكل هذه الآيات بأن ﴿ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ عن الظالمين.

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩ ﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠ ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ١١ ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢ ﴿ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ١٣ ﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ١٤ ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥ ﴾ أَصْلُوها فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦ ﴿ ﴿

(١) انظر «تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم» ج ٣ صفحات ٤٦١-٤٦٧.

يوم تضطرب السماء اضطراباً ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ تزول عن أماكنها ﴿ فَوَيْلٌ لِّيَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بيوم الدين ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ الذين هم في الباطل والزيف يلهون ﴿ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴾ يومها سيدفعون بشدة وعنق إلى النار، ويقال لهم ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴾ عندما كنتم في الدنيا ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ هل لا زلتم تنكرون البعث والحساب وتقولون عن رسلكم إنهم سحرة؟ أم أنكم عطلتم بصائرهم في حياتكم الدنيا لتنعموا بمتعها الزائلة الزائلة؟ أم أن النار حق ﴿ اصْلَوْهَا ﴾ عانوا لهيبها ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾ فسواء صبرتم أم لا ﴿ إِنَّمَا تَجَزُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

أما المتقون، فهم يتلذذون في جنات النعيم بما آتاهم ربهم، ونجاهم من عذاب الجحيم، يتمتعون وأزواجهم حور العين بأطيب المقام والراحة والطعام والشراب، جزاء عملهم في الدنيا .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَحَلْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾

والذين آمنوا، واتبعتهم ذريتهم في الإيمان والعمل الصالح ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ في الجنة ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ ﴾ ما نقصناهم شيئاً من ثواب أعمالهم ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ فلا تزر وازرة وزر أخرى، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَحَلْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ ويتجاذبون في الجنة في مداعبة وممازحة أشرية ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ﴾ لا يصدر من شاربها لغو ولا كلام آثم ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ يخدمهم غلمان كأنهم لؤلؤ مصون ﴿ وَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عن

هذا النعيم المقيم وسببه ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ من عذاب الله، حريصين على طاعته ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ تفضل علينا الله ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ حفظنا من نار جهنم النافذة في المسام ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبده خوفاً من عذابه وطمعاً في ثوابه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ البر كلمة جامعة لأنواع الخير، وهو - سبحانه - مصدر ومنبع الخير في العالم ﴿الرَّحِيمُ﴾ .

﴿فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٌ وَلَا مَجْنُونٌ﴾ (٢٩) أم يقولون شاعر تتريص به ربِّ المنون ﴿٣٠﴾ قل تربصوا فإنني معكم من المتربصين ﴿٣١﴾ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ﴿٣٢﴾ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ﴿٣٣﴾ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴿٣٤﴾

﴿فَذَكَرْ﴾ يا محمد ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ فلست بما أنعم الله عليك من الرسالة ﴿بِكَاهِنٌ﴾ تفعل ما يفعله الكهنة ﴿وَلَا مَجْنُونٌ﴾ كما يتهمونك ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبِ الْمُنُونِ﴾ بل ويقولون يا محمد إنك شاعر، وينتظرون موتك، قل لهم يا محمد ﴿تَتَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمَتَرَبِّصِينَ﴾ فسرى لمن تكون العاقبة ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾ بهذا القول المتناقض ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ بل هم قوم مجاوزون الحدود في الجحود والضلال ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوْلُهُ﴾ بل يقولون افتري القرآن ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولكنهم في الحقيقة مكابرون بالباطل ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ فليأتوا بقرآن مثله ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ .

﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴿٣٦﴾ أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون ﴿٣٧﴾ أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ﴿٣٨﴾ أم له البنات ولكم البنون ﴿٣٩﴾ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ﴿٤٠﴾ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴿٤١﴾ أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ﴿٤٢﴾ أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون ﴿٤٣﴾

هؤلاء الجاحدون؛ أخلقوا من غير خالق؟ أم هم الذين خلقوا أنفسهم؟ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ فماذا عن السموات والأرض؟ هل خلقوها كما خلقوا أنفسهم؟ وهذه أسئلة استنكار وسخرية، بل إنهم لا يريدون أن يتذكروا، ويرفضوا ما في فطرهم ومداركهم، ليتبعوا أهواءهم الدنيوية، ويسلكوا سبل الظن وعدم المعرفة تحجباً ﴿أَمْ

عندهم خزائن ربك ﴿ ففهم أرباب أم شركاء؟ ﴿ أم هم المسيطرون ﴾ على الأكوان؟ ﴿ أم لهم سلم ﴾ يرتقون فيه حتى يصلوا إلى الملاء الأعلى فيستمعوا لأخبار الغيب، فإذا كانوا كذلك ﴿ فليأت مستمعهم بسطان مبین ﴾ فمن تسمع عليه أن يأتي بحجة واضحة على ذلك ﴿ أم له البنات ولكم البنون ﴾ كما كان يدعى كفار قريش؛ لأنهم كانوا يكرهون خلفه البنات فنسبوهن إلى الله ونسبوا لأنفسهم البنين ﴿ أم تسألهم أجراً ﴾ أم أنك يا محمد سألتهم مالا على إيمانهم ﴿ فهم من مغرم مثقلون ﴾ فأثقلت عليهم بغرامة الأجر ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ أم أنهم يعرفون الغيب ويسجلونه لديهم ﴿ أم يريدون كيدا ﴾ أم أن الأمر مجرد كيد لك وللمؤمنين ﴿ فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله ﴿ أم لهم إله غير الله ﴾ فما هو دليلهم على ذلك ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ .

﴿ وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مكروم ﴾ (٤٤) فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ﴿٤٥﴾ يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون ﴿٤٦﴾ وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿٤٧﴾ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴿٤٨﴾ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴿٤٩﴾

إن يروا في السماء قطعاً قريبة منهم يقولون سحاباً بعضه على بعض يحمل لنا رزقاً، ألا يخشون أن يأتيهم عذاب من السماء كما يأتيهم رزقهم؟ ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ﴾ فاتركهم يا محمد بعد أن بلغتهم رسالتك، حتى يوم يهلكون، يوم لا ينفعهم مكرهم ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ ولهم في الدنيا عذاب من قبل عذاب الآخرة ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ فلربك جنود لا يعلمها إلا هو، فاصبر يا محمد أنت ومن معك من المسلمين، ومن يأت بعدكم على أذى وكيد أعدائكم ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ في حفظنا ورعايتنا، ويتبعك في ذلك من يتبع سنتك ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ فسبح بحمد ربك ليل نهار، في كل حين وكل حال .

آياتها ٦٢	سورة النجم (مكية*)	ترتيبها ٥٣
--------------	------------------------------	---------------

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفْتَمَارُونَ عَلَيَّ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾

يقسم رب العالمين ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ بالنجم إذا غرب وسقط، أو انتشر يوم الحساب ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ ما ضل محمد عن الحق والهدى، ولم يتبع غواية إنس ولا جن، بل هو مهتد ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فكل ما يقوله عن ربه ما هو إلا وحى من الله ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ أمين الوحي جبريل ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو حصافة ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ قيل على صورته التي خلقه الله عليها، وقيل المقصود تمكن بما حباه الله من قوة وحصافة على القيام بما كلفه الله به ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ الجهة العليا من السماء المقابلة للناظر ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ قرب من الأرض ونزل حتى كان مع محمد (ﷺ) ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ قريباً قدر المسافة بين منتصف قوسين مضمومين، أى أقرب ما يكون ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ أوحى جبريل إلى رسول الله ما أوحى الله إليه ﴿مَا كَذَبَ﴾

(*) إلا الآية ٣٢ فمدنية .

الْفُؤَادَ مَا رَأَى ﴿ ما كذب فؤاد محمد فيما رآه ﴾ **﴿ أَفْتَمَارُونَهُ عَلَيَّ مَا يَرَى ﴾** أفتجادلون محمداً وتكذبونه فيما يراه **﴿ وَلَقَدْ رَأَى مُحَمَّدٌ جَبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ مَرَّةً أُخْرَى ﴾** **﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾** قال المفسرون إن السدرة هي شجرة النبق، ولكن ليس هناك توضيح قرآني عن معنى **﴿ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾** ولا نريد الخوض في أمور الغيب **﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾** وكل ذلك من أمور الغيب **﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾** يغطي السدرة ما يغطيها **﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾** ما أخطأ بصر محمد عما سُمح له برؤيته وما طغى، أى ما تجاوز حد ما سُمح له به **﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾** قال بعض المفسرين كان ذلك في المعراج، وما رواه الرسول (ﷺ) عن أحوال الناس في الآخرة، وتوقف البعض عن الخوض في هذا الغيب. وقال محمد الغزالي: [للعلم الإنساني مصادر معروفة، أولها العقل ثم الحواس الخمس. وهناك مصدر ثالث اختص به بعض الناس وهو الوحي الصادق. أشار إليه يعقوب عندما قال لأبنائه: **﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾** [يوسف: ٨٦].

ومن تلقى شيئاً من العليم بكل شيء، فقد اكتسب علماً لا ريب فيه! والله لا يهب من علمه لكل إنسان. فالناس معادن، ولا يحمل العلم إلا عباد مصطفىون، عباد لهم طباع سماوية تأنف من الإسفاف والافتراد، تأفل النجوم وهم لا يأفلون، وتغرب وهم لا يغربون! ومحمد من هؤلاء أو قل: هو إمام هؤلاء!

وسورة النجم تصف كيف تلقى الوحي فتقول **﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ ۝٦ ﴾**.

لقد سبق أن نودى موسى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة، ليكون راعياً للناس بعدما رعى الغنم سنين عدداً. وها هو ذا كبير الأنبياء الذى اعتزل الناس فى غار حراء يجيئه الملك فى صورته المهيبه لبيداً مشوار الدعوة الكبرى.

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۝١١ أَفْتَمَارُونَهُ عَلَيَّ مَا يَرَى ﴾؟

والوحي المحمدي أساسه الحقيقة التى غابت عن كثيرين وحرمت من معرفتها أجيال. **﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾** [.

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تَلْكَ إِذَا قَسَمَةٌ ضَيْرَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥) وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) ﴾

أفرايتم الأصنام التي تعبدونها: اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى؟ - وقد كانوا يقولون إن الملائكة والأصنام بنات الله، وجعلوا الأصنام شركاء لله، وهم كانوا يستضعفون ويستقلون البنات، ويجزعون من الإنفاق عليهن، ويخشون عارهن - فهل جعلتم أولئك البنات شركاء الله وبناته؟ ﴿ تَلْكَ إِذَا قَسَمَةٌ ضَيْرَىٰ ﴾ يقول تعالى متهمكماً: إذا هذه قسمة جائرة ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ ليس لديكم حجة أو برهان، إنما أنتم وأباؤكم تتبعون ﴿ الظَّنَّ ﴾ الخاطيء السيء ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ الذي لا يصدر عن تفكير وتدبر، بل عن هوى النفس وأمانياتها التي تريد متع الدنيا الزائفة الزائلة ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ على لسان محمد لمن أراد أن يتدبر ويتذكر، أو أراد شكوراً ﴿ أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ فليس الثواب على التمني، ولكن على الإيمان والعمل الصالح ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴾ فهو الخالق، وهو القيوم، وهو المحيي والمميت، مالك الملك ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ كيف تعتقدون أن الأصنام تشفع - لأنها في ظنكم الخاطيء السيء بنات الله - إذا كانت الملائكة الكرام الحقيقية لا تشفع شفاعتها؟! ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ إلا بإذن الله .

﴿ إِنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَىٰ (٣٠) ﴾

يعتبر كفار قريش الرافضون الآخرة الملائكة إناثاً ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ الخاطيء السيء الذي لا يفيد من الحق شيئاً ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ فلا تلتفت لمن تولى عن ذكر الله ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ التي هي أكبر همه ومبلغ علمه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ فاختر طريق الضلال ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَىٰ ﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) ﴾

يحاسب مالك السماوات والأرض الناس بما عملوا، بموازينه الحق، إن عملوا سوءاً جزاهم سوءاً، ويغفر ويعفو عن كثير، وإن عملوا حسناً أثابهم بالحسنى، فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ويزيد ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ كالقتل والفتنة وقول الزور والزنا والسرقة ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ صغائر الذنوب، فإن الله ﴿ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ إذا ما تدارك العبد واستغفر وندم وتاب قبل أن يغرغر ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ ويضعفكم منذ أن ﴿ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ منذ أن خلق أباكم آدم من طين، وخلقكم في بطون أمهاتكم ﴿ فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فلا تمدحوا أنفسكم وتنسبوا لها التقوى، فالله ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ .

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَا تَرَى وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى (٤٠) ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾ أدار ظهره للحق ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ أعطى من ماله القليل ثم قطع عطيته؛ لأن نفسه الشحيحة لا تطيق الإحسان. قيل إن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة الذي مال للإسلام، فرده أحد شيوخ قريش قائلاً أنا أتحمل عنك عذاب الآخرة إن أعطيتني كذا وكذا، فدفعت الوليد قليلاً ثم توقف ﴿ أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ هل يعلم ماذا سيحدث غداً؟ - فإن الله يقول ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران، ١٤٠] فاليوم يحتاج أخوك لك وغداً تحتاج أنت إليه - ألا يعمل هذا المتولى عن الحق لآخرته؟ ألم يعرف ما جاء في توراة موسى (ﷺ) وصحف إبراهيم (ﷺ) الذي وُفِّي حين أمره الله بالتضحية بابنه الوحيد إسماعيل (ﷺ) ﴿ أَلَا تَرَى وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى ﴾ لا تؤاخذ نفس بذنوب غيرها ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وفي الحديث: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما

هاجر إليه» متفق عليه ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ يوم الحساب ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾
ثم توفى كل نفس ما عملت بالعدل الإلهي .

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ
خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ
أَغْنَىٰ وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَتَمُودَ فَمَا أَبْقَى (٥١)
وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلِ إِنْهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤)
فَبِأَىٰ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥)﴾

نهاية الإنسان هي عودته إلى ربه يوم الحساب ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ فهو خلق
أسباب السعادة والضحك، وأسباب الحزن والبكاء ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ فهو المحيي
المميت ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ في الإنسان والحيوان وفيما لا نعلم ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ
إِذَا تُمْنَى﴾ إذا تدفقت في الرحم ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ يوم الحساب ﴿وَأَنَّهُ هُوَ
أَغْنَى﴾ أعطى ووهب ﴿وَأَقْنَى﴾ قيل معناها أفقر، وقيل أعطى قليلاً وأرضى به، وقيل
أعطى من يمسك ولا يعطى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى﴾ وهو من ألمع ما يرى من نجوم السماء،
وقد اختصها الله بالذكر لأن بعض العرب كانوا يعبدونها، وكذلك غيرهم ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا
الْأُولَى﴾ وهم قوم نبي الله هود (عليه السلام) ﴿وَتَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ قوم صالح (عليه السلام) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ
قَبْلِ﴾ بالطوفان؛ لأنهم كانوا ﴿أَظْلَمَ وَأَطْعَى﴾ من قوم هود وقوم صالح، أو أن الأقسام
الثلاثة كانوا أظلم وأطغى من الأقسام الآخرين ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ التي قلبت الحق، أي قرى قوم
لوط ﴿أَهْوَى﴾ أسقطها في هلاك الدنيا وعذاب الآخرة، وقال معظم المفسرين رفعها في
السماء وأهوى بها إلى الأرض، فانقلبت رأساً على عقب ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ غطاها من
عذاب الدنيا والآخرة ما غطاها ﴿فَبِأَىٰ آلَاءِ رَبِّكَ﴾ فبأى نعمة من نعم ربك ﴿تَتَمَارَى﴾
تتشكك وتكذب أيها الإنسان! .

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى (٥٦) أَزْفَتِ الْأَزْفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمَنْ
هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجِبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ
وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾

﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴾ قال أكثر المفسرين هذا محمد (ﷺ) والقرآن نذير لكم مثل النذر الأولى التي جاءت للأقوام السابقين ، ويحتمل السياق أن ما قصته عليكم الآيات هو نذير للأقوام السابقة، فانظروا ماذا حل بهم ، واتعظوا واعتبروا حتى لا يصيبكم ما أصابهم ﴿ أُرِفَتِ الْأَرْفَةُ ﴾ اقتربت الساعة وذنبت ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ ليس غير الله يملك أن يكشف عن وقت وقوعها ، وقيل ليس غير الله قادراً على أن يكشف هولها عن المؤمنين ﴿ أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجِبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ أتتعجبون من هذا الإنذار الجلل ، وتضحكون بدلاً من أن تبكوا خوفاً على مآلكم ﴿ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾ وأنتم لاهون بمتع الدنيا الزائلة الزائلة ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ فتداركوا أنفسكم وسارعوا بالسجود لله ، رمزاً للتسليم له وعبادته .

آياتها ٥٥	سورة القمر (مكية*)	ترتيبها ٥٤
--------------	------------------------------	---------------

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حَكْمَةٌ بِاللُّغَةِ فَمَا تُغْنِ النُّذُرَ (٥) فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ (٦) خَشَعُوا أَبْصَارَهُمْ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَهُمْ جُرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسْرٍ (٨) ﴾

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ قال المراغى: [﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ أى دنت الساعة التى تقوم فيها القيامة، وقرب انتهاء الدنيا، وهذا كقوله: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١]، وقوله ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]، ﴿ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ أى وسيشق القمر وينفصل بعضه من بعض حين يختل نظام هذا العالم وتبدل الأرض غير الأرض، ونحو هذا قوله: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق: ١]، وقوله: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ [التكوير: ١-٢]، وكثير غيرهما من الآيات الدالة على الأحداث الكبرى التى تكون حين خراب هذا العالم وقرب قيام الساعة. ويرى جمع من المفسرين أن هذا حَدَّثَ قد حصل، وأن القمر صار فرقتين على عهد رسول الله ﷺ قبل الهجرة بنحو خمس سنين، و(لكن) الذى يدل على أن هذا إخبار عن حَدَّثٍ مستقبل لا عن انشقاق ماضٍ - أمور:

(*) إلا الآيات ٤٤، ٤٥، ٤٦ فمدنية.

(١) إن الإخبار بالانشقاق أتى إثر الكلام على قرب مجيء الساعة، والظاهر تجانس الخبرين، وأنها خبران عن مستقبل لا عن ماضٍ.

(٢) إن انشقاق القمر من الأحداث الكونية الهامة التي لو حصلت لرأها من الناس من لا يحصى كثرة من العرب وغيرهم، وبلغ حدًّا لا يمكن أحدًا أن ينكره، وصار من المحسوسات التي لا تدفع، ولصار من المعجزات التي لا يسع مسلمًا ولا غيره إنكارها.

(٣) ما ادعى من المسلمين -إلا من شذ- أن هذه معجزة بلغت حد التواتر، ولو كان قد حصل ذلك ما كان رواه آحادًا، بل كانوا لا يعدون كثرة.

وبعد أن ذكر قرب مجيء الساعة، وكان ذلك مما يستدعي انتباههم من غفلتهم والتفكير في مصيرهم، والنظر فيما جاءهم به الرسول من الأدلة المثبتة لنبوته، والمؤيدة لصدقه، لكنهم مع كل هذا ما التفتوا إلى الداعي لهم إلى الرشاد، والهادي لهم إلى سواء السبيل، بل عرضوا وتولوا مستكبرين كما قال: ﴿وَأَنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أى وإن ير المشركون علامة تدلهم على حقيقة نبوتك، وترشدهم إلى صدق ما جئت به من عند ربك، يعرضوا عنها ويولوا مكذبين بها، منكرين أن يكون ذلك حقًا، ويقولوا تكذيبًا منهم بها: هذا سحر سحرنا به محمد، وهو يفعل ذلك على مر الأيام. وفي هذا إيماء إلى ترادف الآيات، وتتابع المعجزات، وقال مخلوف: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ قربت القيامة حتى انشق القمر بعد النفخة الثانية] ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّهُمْ مُّسْتَقِرٌّ﴾ كذبوا ما جاءهم من بينات ليتبعوا أهواءهم وما استقر عليه أبأؤهم برغم ما جاءهم من أنباء عن هلاك الأقسام السابقة، وما فيه من ازدجار لهم يمنعمهم وينهرهم عن اتباع آبائهم في تكذيبهم البينات ﴿حِكْمَةً بِالْغَةِ﴾ رغم ما جاءهم من حكمة بالغة الحجة، ولكن لم ﴿تَعْنِ النَّذْرُ﴾ فلا تنفع النذر من انصرف عنها ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم يا محمد حتى ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ﴾ يوم الحساب، يوم يجمع الداع البشر لهول الحساب ﴿خَشَعًا أَبْصَارَهُمْ﴾ ذليلة مكسورة أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ يخرجون من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ من كثرة عددهم ﴿مَهْطَعِينَ﴾ مسرعين ناظرين في استسلام ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ الذى يدعوهم إلى موقف الحساب ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ﴾ صعب عسير.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ﴾ (٩) ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ (١٠) ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ (١١) ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ

قَدْرٌ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَّدُسْرٍ (١٣) تَجْرَىٰ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٍ (١٦) وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ (١٧) ﴿

قبل تكذيب قومك لك ، كذب نوحاً قومه وقالوا عنه مجنون وزجروه ، أى نهروه حتى يتوقف عن دعوتهم ﴿ فِدْعَا رَبِّهِ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ نادى نوح ربه : إني هُزمت يارب العالمين فانصرني على القوم الظالمين ، فاستجاب له نعم المجيب ، فأمرت السماء سيولاً وفجرت الأرض عيوناً ، فالتقى ماء المطر وماء العيون في فيضان قدرة الله ، وحمل الله رسوله ومن آمن به على سفينته من ألواح خشبية ﴿ وُدُسْرٍ ﴾ مسامير وليف يشد ألواحها تجرى على الماء بعنايتنا ﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا ﴾ جزاء لنوح الذى كفر به قومه ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴾ فهل من متعظ يتذكر فينتفع بتذكرة بأن يؤمن ويعمل صالحاً ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٍ ﴾ فاعتبروا كيف كان عقابي لمن كذب إنذارى ﴿ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴾ ولقد حفظنا القرآن ، ويسرنا قراءته لكل من يريد ، ولا يستعصى فهمه على من أراد أن ينتفع به ، فهل من ﴿ مُذَكِّرٍ ﴾ فهل من متذكر متعظ؟ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٍ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٍ (٢١) وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ (٢٢) ﴾

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ رسولهم هوداً ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٍ ﴾ فاعتبروا كيف كان عقابي لمن كذب إنذارى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ شديدة البرودة عالية الصوت ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ حتى قضى عليهم ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ ﴾ تقلع الناس من أماكنهم وتقذف بهم ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴾ كأنهم جذوع أصول نخل منقعر ، أى منقلع من الأرض ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٍ (٢١) وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفَىٰ ضَلَالًا وَسِعَرٍ (٢٤) أَءَلْقَىٰ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشْرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرِ (٢٦) إِنَّا مَرَّسَلْنَا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضِرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبِهِمْ فَتَعَاوَىٰ فَعَقَرْ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٍ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ (٣٢) ﴾

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ كذبت ثمود بإنذارات صالح ، أو بإنذار صالح وإنذار من قبله من الرسل ، فمن كَذَّبَ إنذار رسول كأنما كَذَّبَ مبدأ إنذار الرسل ﴿ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسَعْرٍ ﴾ هل يعقل أن نتبع إنساناً مثلنا ونترك آلهة الآباء؟! لو فعلنا ذلك فإننا في ضلال وجنون ﴿ أَلَلْفَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ هل نزل عليه الوحي واختاره من بيننا؟ ﴿ بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴾ بل هو كذاب شديد الكبر والبطر ، ثم قال الله لرسوله : سيعلمون غداً من هو الكذاب الأشر ، سأرسل لهم ناقة فتنه لهم ، تشرب يوماً من ماء بئرهم ، ويشربون هم يوماً معلوماً آخر ، ثم أمره بأن يراقب فعل قومه ، ويصطبر عليهم ﴿ فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ فنادوا أحد مترفيهم ، فأمسك بالسيف وعقر الناقة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ فاعتبروا كيف كان عقابي لهم بعد إنذارى إياهم ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً ﴾ الإهلاك ، نزلت عليهم كالصاعقة ، فأخذتهم فزلزلتهم وأرجفتهم ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ كالخشيش اليابس الذى يتخذه صانع الحظيرة ﴿ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسِحْرِ (٣٤) نِعْمَةٍ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتْنَا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بَكْرَةٌ عَذَابٍ مُّسْتَقِرٍّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ (٣٩) وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ (٤٠) ﴿

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ كذبوا إنذارات الرسل ، أو بتكذيبهم إنذار لوط ، فكأنهم كذبوا إنذارات الرسل ، فأرسل الله عليهم ريحاً ترميهم بالحصباء أى الحصا ، أو الحجارة الصغيرة ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ أسرته ممن آمن معه ﴿ نَجَّيْنَاهُمْ بِسِحْرِ ﴾ حيث أخرجناهم من القرية التى كانت تعمل الخبائث قبيل الصبح ﴿ نِعْمَةٍ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ فنجيناها وأهلكنا قومه ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتْنَا ﴾ وقد أنذرهم لوط من أخذنا الشديد ﴿ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ فتشككوا بالإنذارات وكذبوها ، بل ﴿ لَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ لقد أرادوا أن يمكنهم لوط من ضيوفه ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ فأعميناهم ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ فذوقوا عذاب الله وما حذركم منه ﴿ وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بَكْرَةٌ ﴾ أتاهم فى الصباح الباكر ﴿ عَذَابٍ مُّسْتَقِرٍّ ﴾ مستمر حتى هلكوا ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ عن استحقاق تام ﴿ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ﴾ .

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤١﴾ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سِيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَىٰ وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ﴾ على يد موسى وهارون (صلى الله عليهما وسلم)، فكذبوا كل آياتنا، فاستدرجهم الله بتكبرهم وجحودهم، ليأخذهم أخذ عزيز مقتدر بإغراقهم في الماء ﴿أَكْفَارَكُمْ﴾ يا أهل مكة وبلاد العرب، ومن يبلغه القرآن ﴿خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ﴾ الأمم السابقة التي عصت ربها وكذبت رسله ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أم لكم براءة وعهد من الله في الكتب السماوية ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ أم يقول أولئك الكفار نحن أقوىاء ومجتمعون والنصر حتماً لنا ﴿سِيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ سيغلب جميع الكفار ويفرون ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ يومهم النهائي ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَىٰ وَأَمْرٌ﴾ عليهم .

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلِمَةً بِالْبَصْرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ في ضلال الدنيا وفي نيران مستعرة في الآخرة ﴿يُسْحَبُونَ﴾ فيها على وجوههم، ويقال لهم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ذوقوا نار جهنم، وسقر علم على جهنم، من سقرته الشمس، أي لوحته وأذابته ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ بتقدير ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلِمَةً بِالْبَصْرِ﴾ وما قضاؤنا إلا كلمة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ يتم ذلك في لمح البصر، بل أسرع، وهذا لتقريب أمر طلاقة القدرة الإلهية للأذهان ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهكم في الكفر من الأمم السابقة ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ فهل من متذكر متعظ؟ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ كل ما فعلوه مسجل في كتاب، فيه ﴿كُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ مسجل عليهم أو لهم . أما المتقون الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولم يعصوا ربهم، ففي ﴿جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مقام كريم، ومنزلة رفيعة ﴿عِنْدَ مَلِكٍ﴾ ملك الملوك ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ قادر على كل شيء لا يعجزه شيء، فهو خالق كل شيء .

آياتها ٧٨	سورة الرحمن	ترتيبها ٥٥
مدنية(*)		

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّحْمَنُ ١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ ١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾

﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ اسم من أسماء الله الحسنى، ذكر في القرآن ٥٦ مرة، بخلاف ذكره في البسملة في بداية كل سورة عدا سورة التوبة، ومعناه ذو الرحمة الواسعة، والكلمة على وزن فعلان تفيد المبالغة في الرحمة، وهو واهب الرحمة لمن يريد من خلقه ومانعها عنمn يريد، وسعت رحمته كل شيء، وارجع لشرحها في سورة الفاتحة صفحة ١٤ من المجلد الأول ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ من نعمة الرحمن على البشر إنزاله الكتب وإرساله الرسل، فأُنزل القرآن وعلمه للعلماء ليعلموه للناس، وفي الحديث «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» رواه البخارى، وقدمت السورة ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ على ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ فكأن القرآن بما جمع من كتب سماوية هي فيض الرحمن ونوره على ذلك الإنسان المخلوق من طين، ثم من نطفة، يلتقى بنور الله في فطرة ذلك الطين والنطفة، فيخلق عاليًا، مؤهلاً لأن يصبح

(*) وقيل مكية .

خليفة على الأرض، يعبد الله بأن يقيم الحق ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ من العدم، ثم من طين، ثم من نطفة ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ بيان ما فى نفسه، وفهم بيان غيره ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحَسَابٍ ﴾ حساب مصدر كالغفران، أو جمع حساب مثل شهاب وشهبان، فحركتهما بحساب، وما يمدان به الأرض من طاقة حرارية وضوئية وما إلى ذلك بحساب، وسخرهما الله بحساب ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ والنجم هو النبات الذى ينجم، أى يطلع من الأرض ولا ساق له، وهو نجم السماء أيضاً ﴿ وَالشَّجَرُ ﴾ الذى له ساق ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ عبادة وطاعة لله باتباع قوانينه ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ بغير عمد ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ المقصود بالميزان العدل، فيكون المعنى شرع العدل ونهى عن الظلم ﴿ أَلَّا تَتَطَفَّؤُا فِي الْمِيزَانِ ﴾ لا تظلموا وتتجاوزوا العدل ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ واعدلوا ولا تظلموا ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾ بسطها ويسرها ﴿ لِلْأَنْعَامِ ﴾ للخلق ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ ذات الأوعية التى فيها الثمر ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ﴾ ذو القشر أو الورق اليابس كالتين ﴿ وَالرَّيْحَانُ ﴾ كل نبات طيب الرائحة ﴿ فَبِأَى آيَةٍ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ ﴾ فبأى نعمة من نعم الله تجحدان أيها الثقلان، أى الإنس والجن .

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَى آيَةٍ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَى آيَةٍ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَى آيَةٍ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَى آيَةٍ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَى آيَةٍ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ (٢٥) ﴾

خلق الله الإنسان من طين يابس يسمع له صوت ﴿ كَالْفَخَّارِ ﴾ كالطين الذى يتحول لفخار ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ من لهب صاف ﴿ فَبِأَى آيَةٍ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ ﴾ فبأى نعمة من نعم ربكم تجحدان وتتكبران ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ أى مشرقى الصيف والشتاء ومغربى الصيف والشتاء ﴿ فَبِأَى آيَةٍ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ ﴾ فبأى نعمة من نعم ربكم تجحدان ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ قال زغلول النجار: [إطلاق لفظة البحرين هنا دون تقييد يدل على أنهما البحرين المالخان، وليس النهر والبحر كما ذهب إليه غالبية المفسرين - قدامى ومعاصرين - ويؤكد ذلك ما جاء فى الآية ٢٢ من السورة نفسها بقول الحق (عز من قائل): ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ واللؤلؤ عبارة عن كريات صلبة ناعمة من كربونات

الكالسيوم، لها بريق لوني مبهج، تنمو بداخل أصداف طائفة خاصة من قبيلة الرخويات تعرف باسم «مزدوجات المصرع»، وهي حيوانات مائية تعيش في كل من الماء المالح والماء العذب، ويستخدم اللؤلؤ كأحد الجواهر النفيسة، ولكن المرجان هو حيوان بحري لا يحيا إلا في الماء المالح (وهو اللؤلؤ الصغير)، وعلى ذلك فإن سياق الآيات في سورة الرحمن يؤكد أن البحرين كلاهما مالح، كما أكدته إطلاق لفظه البحرين^(١) ﴿فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأى

(١) والتباين في كل من درجات الحرارة ونسبة تركيز الأملاح في ماء البحار والمحيطات يؤدي إلى تباين في كثافتها، مما يعين على تحديد تلك الكتل المائية المتباينة، على الرغم من محاولة الأمواج والتيارات البحرية خلطها مع بعضها البعض. وتتحرك كتل الماء السطحية بين مساحات كبيرة من خطوط العرض، فتتغير صفاتها الطبيعية والكيميائية بتغير الظروف البيئية التي تنتقل إليها من مثل درجات الحرارة، ومعدلات التبخر، وسقوط الأمطار، وغيرها، وعندما تتغير كثافة الكتلة المائية السطحية فإنها تغوص في وسط ماء أقل كثافة حاملة معها بعض صفات ماء المنطقة السطحية التي كانت فيها إلى أعماق المحيط، إن لم تحمل تلك الصفات كلها، فتؤدي إلى تغيير كبير في صفات الماء بتلك الأعماق، كما تعين على تحديد المصادر التي جاءت منها مهما تباعدت مسافات تلك المصادر إلى آلاف الكيلومترات، ومع اختلاط الماء من مصادر مختلفة تتغير صفات الكتل المائية في المحيط الواحد، وفي البحر الواحد باستمرار، وبين البحار والمحيطات المختلفة بطريقة مستمرة.

وعلى الرغم من ذلك تبقى كتل متميزة من الماء في تلك البحار والمحيطات ما بقيت، وتسمى كتل الماء المميزة على أسطح تلك المساحات المائية العملاقة في البحار والمحيطات باسم «الموقع الجغرافي» الذي توجد فيه، فتوجد كتل الماء المتوسط بين التيارات المائية الرئيسية في محيطات الأرض، وتوجد كتل الماء حول القطبين، وكتل غيرها بين هاتين المجموعتين من كتل الماء المتميزة، وتعرف باسم «كتل الماء شبه القطبي».

(أ) كتل الماء السطحي في البحار والمحيطات

ينقسم الماء السطحي في بحار الأرض ومحيطاتها على أساس من التباين في درجات الحرارة ونسبة الملوحة إلى الكتل التالية:

(١) كتلة الماء السطحي المتوسط: وتتراوح درجة حرارتها بين ٦، ١٩ مئوية، ونسبة ملوحتها بين ٤، ٣٪ و ٦٥، ٣٪، وتمتد في بحار المناطق شبه الاستوائية ومحيطاتها، وبين خطوط العرض ٣٠، ٣٥ شمالاً وجنوباً، وهذه الكتلة المائية الكبيرة تنقسم إلى كتل أصغر لها الكثافة نفسها تقريباً، ولكنها تختلف في بقية صفاتها الطبيعية باختلاف مواقعها الجغرافية، فعلى سبيل المثال فإن الماء السطحي في الجزء الشمالي من المحيط الأطلسي يعتبر أكثر أجزاء المحيطات ملوحة، بينما يعتبر الماء السطحي في شمال المحيط الهادى أقلها ملوحة، ويستمر تواجد كتل الماء المتوسط رأسياً في عمق البحر أو المحيط حتى مستوى ثبات المنحدر الحرارى.

(٢) كتل الماء السطحي في خطوط العرض العليا: وهذه تتميز بدرجات حرارة منخفضة، ونسب ملوحة أقل مما في كتل الماء المتوسط؛ وذلك لوجودها في مناطق باردة وغزيرة الأمطار، وتمتد بصفة عامة في المناطق المناخية المعتدلة شمالاً وجنوباً.

(٣) كتل الماء السطحي في المناطق حول القطبية: أضخمها المنطقة حول القطب الجنوبي، ويتحرك فيها الماء من الغرب إلى الشرق في اتجاه دوران الأرض، ويمتد إلى أعماق تصل إلى ٣٥٠٠ متر، في =

= درجات حرارة تكاد تكون منتظمة بين درجتين مؤويتين والصففر المؤوى، ونسبة أملاح تتراوح بين ٤٦، ٣٪ و ٤٧، ٣٪.

(ب) كتل الماء متوسط العمق في البحار والمحيطات

يتمتد هذا الماء إلى عمق يصل إلى ١٥٠٠ متر تحت مستوى سطح البحر، وهو يتباين في درجات حرارته، ونسب الملوحة فيه، وذلك لتحركه من مصادر مختلفة، وعلى ذلك يمكن تقسيمه إلى العديد من الكتل بناء على صفاته الطبيعية، ومصادره التي جاء منها. ويبلغ هذا الماء المتوسط العمق أقصى انتشار له في المنطقة المعتدلة الجنوبية، وهي منطقة شاسعة الاتساع عندما يبدأ الماء في الهبوط من السطح إلى أعماق البحر؛ لازدياد كثافته بزيادة برودته، أو لزيادة نسبة الأملاح المذابة فيه، وبهبوط هذا الماء يختلط بنسب مختلفة مع كتل مائية ذات صفات متباينة ليكون ما يسمى باسم «ماء القطب الجنوبي المتوسط العمق» والذي ينتشر في كل أحواض المحيطات، ويتدفق هذا الماء البارد في اتجاه الشمال حتى يصل إلى خط عرض ٢٠ شمالاً في المحيط الأطلسي، ويتحرك جنوباً حتى خط عرض ١٠ جنوب خط الاستواء في كل من المحيطين الهندي والهادي. ويمتد ماء القطب الشمالي المتوسط العمق إلى شمال كل من المحيطين الأطلسي والهادي، ويتركز في أجزائهما الغربية، وهذا الماء تزداد ملوحته نسبياً في شمال غرب المحيط الأطلسي؛ وذلك بسبب تركيز الأملاح الناتج عن تجمد الماء في القطب الشمالي، وتحرك الركازة الملحية إلى تلك المنطقة التي تشهد معدلات البخر فيها. كذلك درجة حرارة حوالى ١٣ °م، ونسبة ملوحة تصل إلى ٨١، ٣٪ لينزل تحت الماء السطحي للمحيط وتحت كتل الماء المتوسط فيه، ويمكن تتبعه إلى مسافات بعيدة فوق قاع المحيط الأطلسي، رغم تغير صفاته الطبيعية بالاختلاط مع غيره من كتل الماء، كذلك يندفع ماء البحر الأحمر إلى بحر العرب عبر باب المندب ليختلط بكتل الماء فيه، ويندفع ماء الخليج العربي إلى المحيط الهندي عبر مضيق هرمز.

(ج) كتل الماء العميق في البحار والمحيطات

إن أوضح نموذج لكتل الماء العميق في البحار والمحيطات يقع في الجزء الشمالي الغربي من المحيط الأطلسي، ويتبع هذا الماء من اختلاط الماء شديد الملوحة المندفع بواسطة تيار الخليج الذي يضرب شواطئ فلوريدا والماء السطحي القادم من المنطقة شبه المتجمدة الشمالية، وفي فصل الشتاء يبرد هذا الخليط من الماء فيهبط إلى قاع البحر حتى يصل إلى ما دون كتل الماء المتوسطة العمق، وعندما يتحرك هذا الخليط من الماء جنوباً فإنه يرتفع فوق ماء القطب الجنوبي العميق لقلّة كثافته عن كثافة الماء القطبي، وعلى ذلك فإن كتلة ماء شمال الأطلسي العميقة تغطي قاع ذلك المحيط إلى خط عرض ٣٠ شمالاً، ولكنها تتطابق بين كتل الماء العميق والمتوسط العمق كلما اتجهنا إلى الجنوب من هذا الخط من خطوط العرض، وتبقى كل كتلة منها محتفظة بصفاتها الطبيعية والكيميائية حوالى ٣ درجات مئوية، ويصل متوسط نسبة الأملاح فيها إلى ٩، ٣٤٪، ولا توجد كتل عميقة من الماء في كل من المحيطين الهندي والهادي باستثناء بعض الجيوب الصغيرة.

(د) كتل الماء شديد العمق في البحار والمحيطات

يحوى المحيط القطبي الجنوبي فوق قاعه كتلة من الماء تعتبر أعلى ماء الأرض كثافة، ويتكون هذا الماء حول القارة القطبية الجنوبية في فصل الشتاء، ثم يتحرك شمالاً إلى قيعان المحيطات الرئيسية الثلاثة: الهادي والأطلسي والهندي حتى يصل إلى خط العرض ٣٠ شمالاً. وكتل ماء قاع القطب الجنوبي تتكون أساساً من تجمد الماء بكميات كبيرة فوق الرصيف القاري تاركاً وراءه كمية هائلة من الركازة الملحية، التي تندفع عبر منحدرات الجرف القاري لتختلط مع قدر مساو تقريباً من كتل الماء السطحي حول القطبين، فينشأ هذا الماء الذي يتميز بدرجة برودة شديدة (-٤، ٠ درجة مئوية) ونسبة ملوحة عالية نسبياً في حدود ٤٧، ٣٪). وعلى ذلك، فقد ثبت أن الماء في محيطات العالم يرتب أفقياً ورأسياً في كتل متمايزة =

نعمة من نعم ربكم تحجدان ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ حلية لكم ﴿فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وهو مالك السفن التي تنشئونها بما حباكم به من علم، وما سنه في الكون من قوانين، تجرى في البحر ﴿كَأَلْأَعْلَامِ﴾ كالجبال الضخمة الطويلة، ولم يكن وقت التنزيل هناك سفن ضخمة كالجبال ﴿فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) سَنَفِرُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤)﴾

= عن بعضها البعض، تبدأ عند مستوى سطح البحر في المناطق ذات خطوط العرض العليا، وتمتد إلى أعماق البحار والمحيطات حتى تصل إلى قاع المحيط في المناطق الاستوائية. والترتيب الأفقي لكتل الماء المختلفة في البحار والمحيطات حسب مناطقها المناخية يعكس الترتيب الرأسى في النقطة الواحدة حسب العمق. وهذه الكتل المائية المتجاورة مفصولة عن بعضها البعض بواسطة الصفات الطبيعية والكيميائية الخاصة للماء، وتباين صفات تلك الكتل ذاتها، على الرغم من تحركها عبر بعضها البعض باستمرار أفقياً ورأسياً (أى مرجها)، وذلك بفضل تكون حواجز ذات طبيعة وسطية باستمرار بين الكتل المائية المتفاوتة في صفاتها الطبيعية والكيميائية.

ونظراً لأن دورة الماء في المحيط دورة مستمرة، فإن الماء يتحرك أفقياً ورأسياً باستمرار فيختلط، ولا يمتزج امتزاجاً كاملاً أبداً، فالماء على السطح تدفعه الرياح والتيارات البحرية والأمواج المختلفة في محاولة لخلط تلك الكتل المائية المتجاورة، ولكن ذلك لا يتم بالكامل لضخامة كمياتها، وكذلك فإن هذا الماء السطحي يتعرض للتبخير فتزداد ملوحته، وبالتالي تزداد كثافته، أو للتبريد فتزداد كثافته؛ مما يؤدي إلى نزوله إلى أعماق البحر، وهناك قد يتعرض لشيء من الحرارة عبر النشاطات البركانية فوق قيعان بعض البحار والمحيطات، أو لشيء من إنقاص نسبة الملوحة بترسيب جزء من الملح المذاب، أو تقليل نسبته بالاختلاط بتيار من الماء العذب، فتقل كثافة الماء في الأعماق، ويرتفع إلى أعلى لمعاودة الكرة مرات ومرات وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد ثبت بدراسة النظائر المشعة أن اختلاط ماء أعماق البحار والمحيطات يحتاج بين الألف والألف وستمائة سنة لكي يتم، وذلك في حوض المحيط الهادى، وإلى نصف هذا الزمن في كل من المحيطين الهندي والأطلسي؛ ولذلك فهو يمثل دائماً أقدم الماء في المحيط على الإطلاق، بينما يمثل الماء السطحي أحدث الماء عمراً؛ لأنه لا يكاد يبقى في مكانه لأكثر من ١٠ إلى ٢٠ سنة، والماء يتحرك من المحيطين المتجمد الجنوبي في اتجاه الشمال بمعدل نصف مليمتر تقريباً في كل ثانية. من ذلك يتضح أنه على الرغم من عوامل الخلط الأفقية والرأسية المستمرة في البحار والمحيطات بفعل كل من الأمواج والتيارات البحرية، وبفعل تغير درجات الحرارة، ومتوسط الكثافة، إلا أن العديد من الكتل المائية تبقى محتفظة بصفاتها الطبيعية والكيميائية الخاصة؛ لتوفر البيئات اللازمة لكل مجموعات الحياة في البحار والمحيطات. د. زغلول النجار - «تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم» الجزء الرابع صفحات ٥٢ - ٥٧. مكتبة الشروق الدولية.

كل ما على الأرض هالك، ويبقى الله ذو الجلال والإكرام ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ يسأله خلقه في السموات والأرض خوفاً وطمعاً ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ الزمن من مخلوقات الله، ويجرى الزمن بتغيير شئون الله في خلقه وفي مخلوقاته، ولا يجرى عليه بتغيير في ذاته ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ ثم تحذر الآية الثقيلين ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ قال المراغي: [قال الزجاج: الفراغ في اللغة على ضربين، أحدهما الفراغ من الشغل، والآخر القصد للشيء والإقبال عليه، كما هنا]، أو بتعبير مستعار من أحوال الناس وأقوالهم: ستفرغ يوم القيامة لحسابكم حساباً عادلاً ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ ثم تكشف الآية عن غيب لم يتحقق إلا بعد نزول القرآن بأكثر من اثني عشر قرناً ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ إن استطعتم أن تخرجوا من أقطار السماوات والأرض فخرجوا^(١)، ولا يتم ذلك ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ من الله ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ وكأما الآية تنبأ بأن ينفذ الإنسان بقدر محدود من أقطار السماوات والأرض، والله أعلم.

(١) قال زغلول النجار في:

أولاً: بالنسبة للنفاذ من أقطار الأرض

إذا كان المقصود من هذه الآيات الكريمة إشعار كل من الجن والإنس بعجزهما عن النفاذ من أقطار كل من الأرض على حدة، والسماوات على حدة، فإن المعارف الحديثة تؤكد ذلك؛ لأن أقطار الأرض تتراوح بين ١٢٧٥٦ كيلومتراً بالنسبة إلى متوسط قطرها الاستوائي، و١٢٧١٣ كيلومتراً بالنسبة إلى متوسط قطرها القطبي؛ وذلك لأن الأرض ليست تامة الاستدارة لانبعاثها قليلاً عند خط الاستواء، وتفلطحها قليلاً عند القطبين.

ويستحيل على الإنسان اختراق الأرض من أقطارها لارتفاع كل من الضغط والحرارة باستمرار في اتجاه المركز مما لا تطبيقه القدرة البشرية، ولا التقنيات المتقدمة التي حققها إنسان هذا العصر، فعلى الرغم من التطور المذهل في تقنيات حفر الآبار العميقة التي طورها الإنسان بحثاً عن النفط والغاز الطبيعي، فإن هذه الأجهزة العملاقة لم تستطع حتى اليوم تجاوز عمق ١٤ كيلومتراً من الغلاف الصخري للأرض، وهذا يمثل ٠,٢٪ تقريباً من طول نصف قطر الأرض الاستوائي، وعند هذا العمق تعجز أدوات الحفر عن الاستمرار في عملها لتزايد الضغط، وللارتفاع الكبير في درجات الحرارة إلى درجة قد تؤدي إلى صهر تلك الأدوات، فمن الثابت علمياً أن درجة الحرارة تزداد باستمرار من سطح الأرض في اتجاه مركزها حتى تصل إلى ما يقرب من درجة حرارة سطح الشمس المقدرة بستة آلاف درجة مئوية حسب بعض التقديرات، ومن هنا كان عجز الإنسان عن الوصول إلى تلك المناطق الفائقة الحرارة والضغط. ولو أن الجن عالم غيبي بالنسبة لنا، إلا أن ما ينطبق على الإنسان من عجز تام عن النفاذ من أقطار السماوات والأرض ينطبق عليهم.

والآيات الكريمة قد جاءت في مقام التشبيه بأن كلاً من الجن والإنس لا يستطيع الهروب من قدر الله، أو الفرار من قضائه، بالهروب إلى خارج الكون عبر أقطار السماوات والأرض؛ حيث لا يدرى أحد ماذا بعد ذلك، إلا أن العلوم المكتسبة قد أثبتت بالفعل عجز الإنسان عجزاً كاملاً عن ذلك، والقرآن الكريم يؤكد لنا اعتراف الجن بعجزهم الكامل عن ذلك أيضاً، كما جاء في قول الحق (تبارك وتعالى) على لسان الجن =:

= ﴿ وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَنْ تُعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ [الجن: ١٢].

وذلك بعد أن قالوا:

﴿ وَأَنَا لَمْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلَكًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴾ [الجن: ٨].

ثانياً: بالنسبة للنفاذ من أقطار السماوات:

تبلغ أبعاد الجزء المدرك من السماء الدنيا من الضخامة ما لا يمكن أن تطويها قدرات كل من الإنس والجن، مما يشعر كلاً منهما بضعافته أمام أبعاد الكون، ويعجزه التام عن مجرد التفكير في الهروب منه . . . أو النفاذ إلى المجهول من بعده . . . !!! .

فمجرتنا (سكة التبانة) يقدر قطرها الأكبر بمائة ألف سنة ضوئية (١٠٠,٠٠٠ × ٩,٥ مليون مليون كيلومتر تقريباً)، ويقدر قطرها الأصغر بعشرة آلاف سنة ضوئية (١٠,٠٠٠ × ٩,٥ مليون مليون كيلومتر تقريباً)، ومعنى ذلك أن الإنسان لكي يتمكن من الخروج من مجرتنا عبر قطرها الأصغر يحتاج إلى وسيلة تحركه بسرعة الضوء (وهذا مستحيل) ليستخدمها في حركة مستمرة لمدة تصل إلى عشرة آلاف سنة من سنيننا، وبطاقة انفلات خالية لتخرجه من نطاق جاذبية الأجرام التي يمر بها من مكونات تلك المجرة، وهذه كلها من المستحيلات بالنسبة للإنسان الذي لا يتجاوز عمره في المتوسط خمسين سنة .

ومجموعتنا الشمسية تقع من مجرتنا على بعد ثلاثين ألفاً من السنين الضوئية من مركزها، وعشرين ألفاً من السنين الضوئية من أقرب أطرافها، فإذا حاول الإنسان الخروج من أقرب الأقطار إلى الأرض فإنه يحتاج إلى عشرين ألف سنة وهو يتحرك بسرعة الضوء لكي يخرج من أقطار مجرتنا، وهل يطيق الإنسان ذلك؟! أو هل يمكن أن يحيا إنسان لمثل تلك المدد المتطاولة؟! وهل يستطيع الإنسان أن يتحرك بسرعة الضوء؟! كل هذه حواجز تحول دون إمكان ذلك بالنسبة للإنسان، وما ينطبق عليه ينطبق على عالم الجن . . . !!! .

ومجرتنا جزء من مجموعة من المجرات تعرف باسم «المجموعة المحلية» يقدر قطرها بنحو ثلاثة ملايين وربع المليون من السنين الضوئية ٢٦١,٥٠٠,٣ سنة ضوئية، وهذه بدورها تشكل جزءاً من حشد مجرى يقدر قطره بأكثر من ستة ملايين ونصف المليون من السنين الضوئية ٥٢٣,٠٠٠ سنة ضوئية، وهذا الحشد المجرى يكون جزءاً من الحشد المجرى الأعظم، ويقدر قطره الأكبر بمائة مليون من السنين الضوئية، وسمكه بعشرة ملايين من السنين الضوئية . وتبدو الحشود المجرية العظمية على هيئة كروية تدرس في شرائح مقطعية تقدر أبعادها في حدود ١٥٠ × ١٥٠ × ١٥٠ مليون سنة ضوئية، وأكبر تلك الشرائح - ويسمى الفلكيون مجازاً باسم ((الحائط العظيم)) - يزيد طولها على مائتين وخمسين مليوناً من السنين الضوئية .

وقدمت أخيراً اكتشاف نحو مائة من الحشود المجرية العظمية تكون تجمعاً أعظم على هيئة قرص يبلغ قطره الأكبر بليونين من السنين الضوئية .

والجزء المدرك من الكون يمثل جزءاً يسيراً من السماء الدنيا التي زينها ربنا (تبارك وتعالى) بالنجوم، فقال (عز من قائل):

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٥].

هذا الجزء المدرك من السماء الدنيا يزيد قطره على العشرين بليون سنة ضوئية، وهي حقائق تجعل الإنسان بكل إنجازاته العلمية يتضاءل تضاضلاً شديداً أمام أبعاد الكون المذهلة، وكذلك الجن، وكلاهما أقل من مجرد التفكير في إمكان الهروب من ملك الله الذي لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه . . . !!! .

ثالثاً: بالنسبة إلى إرسال شواظ من نار ونحاس على كل من يحاول النفاذ من أقطار السماوات والأرض بغير سلطان من الله (تعالى)

قد أجمع قدامى المفسرين ومحدثوهم على أن لفظة شواظ هنا تعني اللهب الذي لا دخان له، وكلمة =

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ (٣٥) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٦) فَإِذَا
 انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ
 ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤٠) يَعْرِفُ الْمَجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ

= نحاس تعنى الدخان الذى لا لهب فيه ، أو تعنى فلز النحاس الذى نعرفه جميعاً ، وهو فلز معروف
 بدرجة انصهاره العالية (١٠٨٣م) درجة غليانه الأعلى (٢٥٦٧م) .
 ومن الثابت علمياً أن العناصر المعروفة لنا تتخلق في داخل النجوم بعملية ((الاندماج النووي)) لنوى
 ذرات الإيدروجين ، فينتج عن ذلك نوى ذرات العناصر الأثقل بالتدرج حتى يتحول لب النجم إلى
 حديد .

والتفاعل النووي قبل تكون ذرات الحديد هو تفاعل منتج للحرارة التى تصل إلى بلايين الدرجات المثوية ،
 ولكن عملية الاندماج النووي المنتجة للحديد عملية مستهلكة للحرارة ، وبالتالي لطاقة النجم حتى
 تضطره إلى الانفجار؛ مما يؤدي إلى تناثر العناصر التى تكونت بداخله - بما فيها الحديد - فى صفحة
 السماء لتدخل هذه العناصر فى مجال جاذبية أجرام تحتاج إليها بتقدير من الله (تعالى) . أما العناصر ذات
 النوى الأثقل من ذرة الحديد فتتخلق بإضافة اللبنة الأولية للمادة إلى نوى ذرات الحديد السابحة فى
 صفحة السماء حتى تتكون بقية المائة وخمسة من العناصر المعروفة لنا ، وهذه أيضاً تنزل إلى جميع أجرام
 السماء بقدر معلوم . ولما كان عنصر النحاس أعلى من الحديد فى كل من وزنه وعدده الذرى (الوزن
 الذرى لنظائر الحديد ٥٤ و ٥٦ و ٥٧ والوزن الذرى للنحاس ٦٣ ، ٥٤٦ ، ٥٤٦ والعدد الذرى للحديد ٢٦ بينما
 العدد الذرى للنحاس ٢٩) ، وبناء على ذلك فإن عنصر النحاس يتخلق فى صفحة السماء الدنيا باندماج
 نوى ذرات الحديد مع بعض اللبنة الأولية للمادة ، وهذا يجعل صفحة السماء الدنيا زاخرة بذرات
 العناصر الثقيلة ، ومنها النحاس .

هذه الملاحظة تشير إلى أن لفظة نحاس فى الآية الكريمة تعنى فلز النحاس؛ لأن التأويل هنا لا داعى له على الإطلاق،
 فالنحاس وهو منصهر وتغلى قطراته فى صفحة السماء بعد عقاباً رادعاً لكل محاولة إنسية أو جنية لاختراق أقطار
 السماوات والأرض .

وقد اتصل بى أخ كريم هو الدكتور عبد الله الشهابى وأخبرني بأنه زار معرض الفضاء والطيران فى مدينة
 واشنطن دى سى الذى يعرض نماذج الطائرات من بداياتها الأولى إلى أحدثها، كما يعرض نماذج لمركبات
 الفضاء ، وفي المعرض شاهد قطاعاً عرضياً فى كبسولة أبولو ، وأذهله أن يرى على سطحها خطوطاً
 طولية عديدة غائرة فى جسم الكبسولة وملبنة بكاربونات النحاس (جنزار النحاس) ، وقد لفتت هذه
 الملاحظة نظره ، فذهب إلى المسئول العلمى عن تلك الصالة وسأله : هل السبيكة التى صنعت منها
 الكبسولة يدخل فيها عنصر النحاس؟ فنفى ذلك نفياً قاطعاً ، فأشار إلى جنزار النحاس على جسم
 الكبسولة وسأله : من أين جاء هذا؟ فقال له : من نوى ذرات النحاس المنتشرة فى صفحة السماء التى
 تضرب جسم الكبسولة طوال حركتها صعوداً وهبوطاً من السماء ، وحينما تعود إلى الأرض وتمر بطبقات
 بها الرطوبة وثاني أكسيد الكربون فإن هذه الذرات النحاسية التى لصقت بجسم الكبسولة تتحول
 بالتدرج إلى جنزار النحاس . ويقول الدكتور الشهابى : إنه على الفور تراءت أمام أنظاره الآية القرآنية
 الكريمة التى يقول فيها ربنا (تبارك وتعالى) : «يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران» هذه
 الملاحظة أكدت لى ما ناديت به طويلاً بأن لفظة نحاس فى الآية تعنى فلز النحاس ، ولا تحتاج إلى أدنى
 تأويل «تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم» ج ٤ ، صفحات ٦٦-٧٠ - مكتبة الشروق الدولية .

بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) ﴿

ولكن لن تتجاوزوا في نفاذكم قدرًا محددًا، بعده يرسل عليكم ﴿ شَوْاطِئَ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ ﴿ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿ لهب خالص من نار ومن نحاس فلا تتغلبان عليه ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿ فإذا تصدعت السماء فصارت على شكل وردة كالزيت الأحمر ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿ في هذا اليوم العصيب تظهر أعمال الجميع ، فلا حاجة لسؤال المذنب ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿ ويظهر المجرمون بعلامات ذنوبهم ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿ فتأخذهم الملائكة من مقدمات رؤوسهم ومن أقدامهم إلى مصيرهم ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿ هذه هي جهنم التي كنتم تكذبون بها في دنياكم لتستمتروا في ضلالكم وعبادة أهوائكم قد رأيتموها الآن رأى العين ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿ فمستقرهم ومثواهم بين جهنم وبين ماء بالغ الحرارة ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿ .

﴿ وَلَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مَتَكِّينَ عَلَى فُرَشٍ بَطَّانِيهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ مِنْهُمْ لِقَابُهُمْ وَلَا جَانٍ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) ﴿

﴿ وَلَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ قالت الأديان الإبراهيمية الثلاثة : رأس الحكمة مخافة الله ، وقال الطبري : [عن مجاهد قال : الرجل يهيم بالذنب فيذكر مقامه بين يدي الله فيتركه ، فله جنتان] ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ في تلكما الجنتين ﴿ أَفْنَانٍ ﴾ فروع وأغصان تحمل أطيب الطعام ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وفيهما ﴿ عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ بأفضال وأنعام الرحمن ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وفي الجنتين زوجان من كل أنواع الفاكهة ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ينعم أصحاب الجنة بالراحة فيها ﴿ عَلَى فُرَشٍ بَطَّانِيهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ على أرائك وسرائر من حرير سميك ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ وثمار الجنتين قريب المنال ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وفيهما أزواج لكم لا ينظرن ولا يلتفتن إلا لأزواجهن ﴿ لَمْ يَطْمِئِنَّ ﴾ لم يمسهن

﴿إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ لأنهن خلقن مقصورات لأزواجهن ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿شَبِهَ الْقِرَانَ حُورَ الْجَنَّةِ بِالْحُلَى الثَّمِينَةِ الْجَمِيلَةِ مِنَ الْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ﴾ ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿سَبِحَانَ الرَّحْمَنِ قَائِلٌ﴾ ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ والإنسان أحد طرفى الآية، والتي يمكن تأويلها بأن الله - سبحانه وتعالى - بدأ بالإحسان للبشر، بخلقهم وتسخير السماوات والأرض لهم، وتكليفهم بالخلافة على الأرض، فالجدير بهم أن يحسنوا العمل، جزاء لإحسان ربهم عليهم من مبتدأ أمرهم، فإذا أحسنوا العمل، جاءهم الإحسان النهائى، بأن يدخلهم الله جنته، ويفضل عليهم برضاه ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ .

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ (٦٢) ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (٦٣) ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾ (٦٤) ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (٦٥) ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ﴾ (٦٦) ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (٦٧) ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (٦٨) ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (٦٩) ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾ (٧٠) ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (٧١) ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ (٧٢) ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (٧٣) ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ (٧٤) ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (٧٥) ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خَضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حَسَنِ﴾ (٧٦) ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (٧٧) ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٨) .

وهناك جنتان أقل درجة من السابقتين ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ هاتان الجنتان ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾ لونهما أخضر قريب إلى السواد من اكتمال النضج ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ وفيهما عينان فوأتان ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ وفيهما فاكهة ونخل ورمان ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ وفيهما زوجات خيرات الأخلاق حسان الوجوه ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ حور مقصورات النظر والاهتمام على أزواجهن يعشن فى خيام ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ لم يمسسهن بشر ولا جان ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ وهم جميعاً ينعمون بطيب العيش والراحة ﴿عَلَى رَفْرَفٍ خَضِرٍ﴾ وسائد أو فرش مرتفعة لونها أخضر مبهج ﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ بسط عجيبة فى جمالها وراحتها ﴿فَبِأَىِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ تبارك اسم ربك ولى تلك النعم المباركة ﴿ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ .

آياتها ٩٦	سورة الواقعة مكية(*)	ترتيبها ٥٦
--------------	-------------------------	---------------

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ (١) لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ (٢) إِذَا رَجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿ (٤) وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿ (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿ (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿ (١٢) ﴿

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ إذا قامت القيامة ﴿ لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ لا يمكن لأحد تكذيبها أو منعها أو رفضها ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ خافضة للأشقياء من الكفار والمشركين رافعة للسعداء من المؤمنين الذين عملوا الصالحات ﴿ إِذَا رَجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴾ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴿ وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ تفتتت الجبال تفتتًا ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً ﴾ غباراً ﴿ مُنْبَثًا ﴾ منتشرًا ﴿ وَكُنْتُمْ ﴾ أيها الناس ثلاثة أنواع من الأزواج: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، و﴿ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ السابقون بالإيمان والأعمال الصالحة في الدنيا، ففي الآخرة ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ من ربهم في ﴿ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ .

﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَى ﴾ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿ (١٥) مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا ﴿ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿ (١٨) لَا

(*) إلا الآيتان ٨١، ٨٢ فمدنيتان .

يُصَدُّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٌ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جِزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهِنَّ ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾

جماعة كثيرة من الأمم الأولى وجماعة قليلة من الأمم الأخيرة ﴿عَلَى سِرِّرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ سرر منسوجة جالسين عليها يواجه بعضهم بعضاً، يطوف عليهم لخدمتهم ولدان لا يكبرون ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ يشربون بها خمر الجنة الذى يتدفق من العيون ﴿لَا يَصُدُّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ لا تسبب لهم صداعاً، ولا تستنفذ عقولهم وتدمرها كخمر الدنيا، ويأكلون الفاكهة التى يختارونها، ولحم الطير الذى يشتهونه ﴿وَحُورٍ عِينٍ﴾ وأزواجهن نساء وضيئات واسعات الأعين ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ كاللآلىء المصونة ﴿جِزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فى الدنيا، لا يسمعون فى الجنة كلاماً لا قيمة له من هراء الدنيا، ولا كلاماً يآثم قائله وسامعه إذا سكت عليه ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ .

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفَرَشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عَرَبًا أُنثَرَا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

أما أصحاب اليمين، الذين هم فى درجة أقل من السابقين، فهم ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ فى شجر نبق خال من الشوك ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ شجر موز مثمر من أسفله إلى أعلاه ﴿وَظِلِّ مَمْدُودٍ﴾ فى ظلال وارفة ممتدة ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ مصبوب لا يحتاج إلى جهد للحصول عليه وفاكهة كثيرة، لا تنفذ ولا تمتنع عنهم ﴿وَفَرَشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ وأسرة عالية عن الأرض ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عَرَبًا أُنثَرَا﴾ أنشأ الله لأصحاب اليمين زوجات أبكاراً، متحبيات لأزواجهن، فى أعمار متساوية، وكما ذكرنا سابقاً، فقد يكن هن زوجاتهم فى الدنيا من المؤمنات الصالحات؛ أنشأهن الرحمن إنشاءً جديداً يوافق نعيم الجنة بدلاً من هيئاتهن فى الدنيا، وكما بينت الأحاديث، فأهل الجنة كلهم شباب لا يهرمون فيها، ولا يمرضون، ولا يصيبهم ضرر ولا سوء، سواء فى الخلق أو الخلق ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ جماعة كثيرة من الأمم الأولى، وجماعة كثيرة من الأمم الأخيرة.

﴿ وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحَنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِنَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوْ آبَاءُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكذِبُونَ (٥١) لَأَكَلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ (٥٢) فَمَالَتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شَرْبَ الْهَيْمِ (٥٥) هَذَا نَزَّلْنَاهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) ﴾

أما أصحاب الشمال، وهم الضالون المكذبون بالدين، فهم ﴿ فِي سَمُومٍ ﴾ في حر نار ينفذ داخل مسامهم ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ ماء بالغ السخونة ﴿ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴾ وظل دخان أسود ساخن، ويحموم هو يفعول الأحم، أى الأسود، والعرب تقول أسود يحموم إذا كان شديد السواد ﴿ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ فقد كانوا فى حياتهم الدنيا مترفين فى اتباع أهوائهم، وكانوا مصريين على الذنب الكبير، الإلحاد أو الشرك أو النفاق أو خليط منها ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِنَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوْ آبَاءُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ فقد كذبوا بأن يبعثهم الله وآبائهم للحساب، فهم يريدون التمتع فى دنياهم بأهوائهم، وبموازينهم، وتحججوا: هل يستطيع أحد أن يبعثنا بعد أن أصبحنا تراباً وعظاماً فى القبور؟ قل لهم يا محمد ﴿ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ عند الله ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكذِبُونَ ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿ لَا أَكَلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ ﴾ وبئس الطعام ﴿ فَمَالَتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ فهذا امتلاء تعذيب ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ فشاربون بئس الشراب المغلى ﴿ فَشَارِبُونَ شَرْبَ الْهَيْمِ ﴾ شرب الإبل التى بها داء الهيام، لا يرتوى ظمؤها مهما شربت ﴿ هَذَا نَزَّلْنَاهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِعَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ نحن ابتدأنا خلقكم من عدم، فالأجدر بكم أن تقرروا بقدرتنا على إعادتكم يوم البعث ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ أفأريتم ما تقدفونه فى الأرحام من النطف، حتى هذه النطف نحن الذين نخلقها وليس أنتم، نضبظها ونقدرها، ونطورها،

ومنها نخرج ذرياتكم، وليس لكم يد في ذلك ولا قدرة، وكما قدرنا نشأتكم الأولى (١) ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ فقد قدرنا أجل كل مخلوق منكم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولن يعجزنا أحد في أن نبذل أحوالكم وننشأكم في أحوال أخرى، لا يعلمها إلا الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ حين لم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم خلق الله آدم وحواء من طين، ثم أخرج من مائهما المهين البشر ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فهل تتذكرون وتعتبرون بأن الذي خلق النشأة الأولى قادر على بعثكم من القبور؟.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٢) أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حِطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُعْرِمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)﴾

أفرايتم ما تبذرونه من الحب في الأرض، أنتم تنبتون منه الزرع أم نحن المنبتون؟ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حِطَامًا﴾ هشيماً قبل أن يكتمل نضجه ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجبون من جفافه أو تعفنه بعد خضرته، ولقلتم ﴿إِنَّا لَمُعْرِمُونَ﴾ إنا غارمون خاسرون، ولقال بعضكم حين يتبين حقيقة الخسران ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ من الرزق.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٦٨) أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)﴾

هل تأملت الماء الذي تشربونه عذباً ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ من السحاب ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ ولو نشاء لجعلناه ماءً مالحاً، فهلاً تشكرون؟.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ (٧١) أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾

أفرايتم النار التي تشعلونها(٢) ﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ أنتم خلقتم

(١) انظر لزغلول النجار «تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم»، ج ٤، صفحات ٧٩-٨٥.

(٢) أدى اكتشاف الإنسان القديم لفوائد النار، سواء في الدفاع عن نفسه ضد الحيوان، أو في الإضاءة والتدفئة، أو في طهي الطعام، وأخيراً في تشغيل المعادن، إلى قفزات كبيرة في تطور الحضارة، ونحن نراها اليوم شيئاً مألوفاً معتاداً لا يلفت نظرنا لأى شيء.

الشجرة التى تشعلون منها النار؟ والمقصود بالشجرة هنا أصل النار، سواء من شجرة أو من قدح حجرين، أو ما استجد وما سيستجد فى طرق إشعال النار ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا﴾ فى النار شتى أنواع التذكير والاعتبار: كيف تخرج النار من الشجر الأخضر؟ ونحن نعرف أن كثيراً من الحرائق تنشب فى الغابات من حرارة الجو. كيف تحرق النار من يلمسها وأصلها الشجر، أو الوقود الذى أصله بقايا نبات وحيوان؟ كيف يخرج النبات الأكسجين اللازم للاشتعال؟ كيف لخواص النار كل ما تجلبه من فوائد وأخطار للبشرية وعليها؟ وماذا يكون شكل نار الآخرة؟ ﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقِيمِينَ﴾ المسافرين الذين ينزلون القواء، أى القفر، فالنار من متاعهم الذى يحتاجونه، سواء للإضاءة أو للدفاع عن أنفسهم، أو للطهى، أو للتدفئة، أو غير ذلك ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ تنزيهاً عما يقول الجاحدون.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾

﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ قال مخلوف: [لا (هى) مزيد للتأكيد فى قول أكثر المفسرين، وقيل: زيدت جرياً على سنن العرب من زيادتها قبل القسم، كما فى: لا وأبيك! كأنهم ينفون ما سوى المُقسم عليه فيفيد التأكيد. وقيل: هى للنفى، أى لا أقسم بها؛ إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، فضلاً عن هذا القسم العظيم] ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ أولتها أكثر التفاسير بأنها مغارب النجوم، ولكن لعلماء اليوم تأويل آخر. قال زغلول النجار: [وهذا القسم القرآنى العظيم بمواقع النجوم يشير إلى سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى إحدى حقائق الكون المبهرة، والتى تقول: إنه نظراً للأبعاد الشاسعة التى تفصل نجوم السماء عن أرضنا، فإن الإنسان على هذه الأرض لا يرى النجوم أبداً، ولكنه يرى مواقع مرت بها النجوم ثم غادرتها، وعلى ذلك فهذه المواقع كلها نسبية، وليست مطلقة، ليس هذا فقط، بل إن الدراسات الفلكية الحديثة قد أثبتت أن نجومًا قديمة قد خبت أو تلاشت منذ أزمنة بعيدة، والضوء الذى انبثق منها فى عدد من المواقع التى مرت بها لا يزال يتلألأ فى ظلمة السماء فى كل ليلة من ليالى الأرض إلى اليوم

الراهن، كما أنه نظراً لانحناء الضوء في صفحة الكون فإن النجوم تبدو لنا في مواقع ظاهرية غير مواقعها الحقيقية، ومن هنا كان هذا القسم القرآني بمواقع النجوم، وليس بالنجوم ذاتها - على عظم قدر النجوم - التي كشف العلم عنها أنها أفران كونية عجيبة يخلق الله (تعالى) لنا فيها كل صور المادة والطاقة التي يبنى منها هذا الكون المدرك^(١) ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ وربما نكون قد علمنا النذر اليسير بما نقلناه عن زغلول النجار، وما أفاض هو فيه في كتابه، وربما نعرف المزيد في المستقبل ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ هذا القرآن الذي أنزلناه على محمد كتاب كريم أنزله رب كريم، يدعو إلى مكارم الأخلاق، ومن يتبعه يرتقى إلى حياة كريمة في الدنيا ومقام كريم في الآخرة ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ محفوظ ومصون ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فهو ليس بقول شاعر ولا ساحر ولا مجنون كما يزعمون ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ تلينون القول وتناقفون ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ ﴾ قيل معناها: وتجعلون شكركم أنكم تكذبون، وقيل المقصود بها من يقول أمطرنا بنوء كذا أو نوء كذا، بدلاً من أن يقول رزقنا الله مطراً، وقيل المقصود: تجعلون رزقكم من القرآن والرسالة الخاتمة التكذيب بدلاً من أن تجعلوه الهدى والإيمان والعمل الصالح في الطريق المستقيم لرب العالمين، وقيل: تختارون أن ترتزقوا بتكذيب القرآن والرسالة الخاتمة^(٢).

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ (٨٨) فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾

(١) من أراد الاستزادة يمكنه الرجوع لكتاب «تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم» ج ٤ صفحات ١٢٥ - ١٣١.

(٢) وما أوضح هذا التأويل الأخير اليوم؛ حيث يتجسد أماناً من يرتق من ذلك، ومن يدعو بكل وسيلة لإفراغ حياة المسلم من شريعته، ومن الأخوة الإسلامية، التي هي الخطوة الأولى للوحدة العربية والوحدة الإسلامية، تماثل الاتحاد الأوربي، وتماثل الروابط الأمريكية الأوروبية.

فإذا بلغت روح المحتضر الحلقوم، كناية عن خروج روحه، وأنتم ترونه أمامكم يحنضر، فهل تستطيعون إمساك روحه في جسده، أو تستطيعون إرجاعها إن خرجت؟ فإن كنتم صادقين في رفضكم عالم الغيب، وتمسككم بمبادئ عالم الشهادة التي ترونها بمدارككم الحسية المحدودة، ورفضكم إلهًا خالقًا ربًا، افعلوا ذلك، واعلموا أننا أقرب للمحتضر منكم ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾ إن كان الميت من المقربين إلى الله وهم السابقون الذين ذكرتهم السورة في أولها ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ فهو في جنة نعيم، فيها راحة من أىّ عناء، وفيها أطيب الروائح ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ وهم أصحاب الشمال ﴿فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ فنزولهم في ماء مغلى ﴿وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ﴾ وحرق في جحيم ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ لا يشوبه ظن ولا تكذيب ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ .

آياتها ٢٩	سورة الحديد	ترتيبها ٥٧
مدنية		

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾

نزه الله عن الشرك وعن النقائص كل ما فى السماوات والأرض، وذلك مثل سجودها لله، طوعاً أو كرهاً، فهناك ما منحه الله القدرة على الاختيار، ومنها ما يسبح ويسجد بدون اختيار، ولكن كلها تسبحه وتسجد له وتطيعه باتباع قوانينه ونواميسه التى لا تستطيع انتهاكها ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو الأول قبل كل شىء، فهو خالق كل شىء، وهو الآخر بعد كل شىء، فكل مخلوق له نهاية كما له بداية، ويبقى بعد كل مخلوق ذو الجلال والإكرام، وهو الظاهر بأدلة وأثار ظهوره، ومنها خلقه، وهو الباطن فهو أصل كل شىء، وقال مخلوف: [المحتجب بكنهه ذاته عن إدراك الأبصار والحواس والعقول، أو العالم بما بطن - أى بما خفى - من الأمور، والله أعلم] ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟ .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرَجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)﴾ .

خلق السماوات والأرض ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ لا يعلمها إلا الله ، فهناك يوم مقداره ألف سنة ، وهناك يوم مقداره خمسون ألف سنة ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ سبق شرحها ، فارجع للآيات ، [الأعراف : ٥٤] ، [يونس : ٣] ، [الرعد : ٢] ، [طه : ٥] ، [الفرقان : ٥٩] ، [السجدة : ٤] ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ يعلم كل ما يدخل الأرض وما يخرج منها ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرَجُ فِيهَا ﴾ وما ينزل من السماء وما يصعد إليها ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ فهو أقرب إلينا من حبل الوريد ، وهل هناك مكان إلا هو خالقه؟ وهل نستطيع أن نذهب إلى مكان إلا بحوله وقوته ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وهل نستطيع أن نفعل شيئاً إلا بقدرته؟ .

﴿ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ ﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ﴿

له وحده ملك السموات والأرض ، وإليه وحده ترجع كل شئونها ﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ يدخل الليل في النهار ﴿ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ ويدخل النهار في الليل ، وهو عليم بما تخفى الصدور .

﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ﴿ ٧ ﴾ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴿ ٨ ﴾ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴿ ٩ ﴾ وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ﴿ ١٠ ﴾ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم ﴿ ١١ ﴾

يأيتها الناس آمنوا بالله ورسوله الذي أرسله ، وكتبابه الذي أنزله ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ﴾ فالإنفاق هو تصديق الإيمان ، والمال هو مال الله ونحن مستخلفون فيه ، ينظر ماذا نفعل به ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا ﴾ في سبيل الله ، من زكاة وصدقة ، لهم أجر كبير

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وما لكم أيها الناس لا تؤمنون بالله، وقد جاءكم رسوله بكتابه، وقد أخذ ربكم ميثاقكم وأنتم في ظهور آبائكم، كما جاء في آية [الأعراف: 172] قيل إن هذه الآية في أهل الكتاب، وقيل في المنافقين، وقيل في المؤمنين، وهى تشمل كل ذلك ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَيْنَا عَيْدَهُ ﴾ محمد أدلة واضحة يهديكم بها لتخرجوا من ظلمات الضلال إلى نور الهداية، رافة من الله ورحمة بكم، روى البخارى أن رسول الله (ﷺ) قال يوماً لأصحابه: «أى المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟»، قالوا: الملائكة، قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟»، قالوا: فالأنبياء، قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم؟»، قالوا: فنحن، قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم، يجدون صحفًا يؤمنون بما فيها» رواه أحمد فى «مسنده»، والخطيب فى «شرف أصحاب الحديث» ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فإذا كان الرزق بيد الله، وأمركم أن تنفقوا فى سبيله، فماذا يمنعكم؟ ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ ﴾ قبل فتح مكة، فأولئك أنفقوا والمسلمون مستضعفون، يتربص بهم كل العرب ﴿ أُولَئِكَ أَكْبَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا ﴾ من بعد فتح مكة لتبدل الأحوال من الضعف إلى القوة ومن الخوف إلى الأمن، حتى لو اشتركوا فى بقية الحروب ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ الجزاء الطيب ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يحكم بالعدل، ثم تدعو الآية كل المؤمنين للإنفاق فى سبيل الله، وتبين أن من ينفق فى سبيل الله كمن يقرض الله قرضاً حسناً، فسبحان خالق النطف الخصيمة، وسبحان من عنده خزائن الرزق التى لا تنفد، وسبحان الله رب غفور شكور، أفلا يعقل الكانزون؟ أفلا يستحى البخلاء والمسكون؟ أفلا يتعظ أولو العقول والضمائر؟ .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بِشَرَاكِهِمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يوم الحساب ﴿يَسْعَى نُوْرُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾
يشع نور إيمانهم وعملهم الصالح من أمامهم ومن يمينهم، وقال مخلوف المراد كل الجهات
وذكرت الآية الأيمان لشرفها، وتلقاهم الملائكة قائلة ﴿بَشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بينما يترجاهم المنافقون والمنافقات قائلين
﴿انظرونا﴾ أمهلونا حتى نقتبس من نوركم ما قد ينفعنا، فيسمعون الرفض ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ
فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ من عملكم السيء في الدنيا، أو من نار جهنم في الآخرة، وذلك من باب
التهكم والاستهزاء ﴿فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾
فالرحمة تجاه المؤمنين والمؤمنات، والعذاب تجاه المنافقين والمنافقات ﴿يَنَادُونَهُمْ﴾ ينادى
المنافقون على المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ ألم نعش سويًا معكم فلماذا تتخلون عنا؟ قال
المؤمنون ﴿بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ بتفضيلكم غرور الدنيا على الآخرة وتربصتم سوءًا
بالمؤمنين وكذبتم بالآخرة ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ حتى انتهى أجلكم ﴿وَعَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾
وغرركم أهواؤكم وأمانيتكم ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا يقبل فداء
من المنافقين والكافرين، ومأواهم النار، هي لكم وأنتم لها ﴿وَبئسَ الْمَصِيرُ﴾ .

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (١٦) اعلموا أن الله
يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٧)

ألم يحن الأوان للذين آمنوا ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ فيعملوا
صالحًا ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ اليهود والنصارى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ طال
الزمن بينهم وبين أنبيائهم، أو طال عمرهم وطال ترفهم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عن ذكر الله
﴿وَكثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ عن طاعة الله ﴿اعلموا أن الله يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وهو كما
يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، يُحْيِي الْقُلُوبَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِذَا لَجَأَتْ إِلَيْهِ، وَيُحْيِي الْأَمْوَاتَ لِيَوْمِ
الْحِسَابِ ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

﴿إِنَّ الْمُسَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرَضًا حَسَنًا يَضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١٨)
وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١٩)

من يقرض الله قرضاً حسناً، يريد به وجهه الكريم، من المتصدقين والمتصدقات، يضاعف الله أجره، ويكرمه بأن يجعل الحسنة بأضعافها إلى سبعمائة ضعف، ويزيد لمن يشاء ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ﴾ ﴿٢٠﴾ وكما بينت آيات وأحاديث كثيرة، فالإيمان يظهر بالعمل الصالح، وتصدقته الزكاة وتثبته ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ يسعى بين أيديهم، أما ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فهم ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ .

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مَصْفُراً ثُمَّ يُكَونُ حَطَاطًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا عَرْضُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

اعلموا يا أولى الألباب أن كل متع الحياة الدنيا ما هي إلا لعب ولهو وزينة فانية غير باقية، وتفاهر زائف لبعضكم على بعض، ومكاثرة في الأموال والأولاد، وهي شبيهة بأمطار أخرجت نباتاً يبلغ أشده فيعجب به الكفار على أنه أهم وأفضل ما في الدنيا، ولكنه سرعان ما يبدأ في الاصفرار واليبوس، ليصير حطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد، أو مغفرة من الله ورضوان لمن آمن وعمل صالحاً ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ قال سعيد بن جبير: [الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة، فنعم المتاع ونعم الوسيلة] ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بالتوبة وعمل الصالحات ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وذلك من فضل الله على عباده، يؤتيه من يشاء ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .

﴿مَا أَصَابَ مَن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

﴿مَا أَصَابَ مَن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ مثل قحط أو نقص في الثمرات، أو وباء، أو دمار على مستوى فردى أو جماعى ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من مرض أو موت ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ﴾

أَنْ نَبْرَأَهَا ﴿﴾ في الكتاب المحفوظ قبل أن تقع بكم ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فأمره كن فيكون ﴿لَكَيْلًا تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ لكي لا تحزنوا على ما فاتكم من حظوظ الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا﴾ فرح بطر وتكبر - وتقولوا ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص : ٧٨] كما قال قارون وأمثاله من المتكبرين المغرورين - لأن الله لا يحب ﴿كُلَّ مَخْتَالٍ﴾ بنفسه ﴿فَخُورٍ﴾ ولا يحب ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ﴾ يمسكون أيديهم عن الإنفاق، بل ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ﴾ ومن يعرض عن سبيل الله والإنفاق في سبيله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢٥)

أرسل الله رسله بالبينات، وأنزل معهم الكتب السماوية، وأمرهم بإقامة الحق، والعدل بين الناس ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أى فيه قوة شديدة فى أدوات الحرب، وله منافع صناعية كثيرة أخرى فى حياة الناس، وقال زغلول النجار: [الآية الكريمة التى نحن بصددنا تؤكد أن الحديد قد أنزل إنزالاً كما أنزلت جميع صور الوحي السماوى، وأنه يمتاز ببأسه الشديد، وبمنافعه العديدة للناس، وهو من الأمور التى لم يصل العلم الإنسانى إلى إدراكها إلا فى أواخر الخمسينيات من القرن العشرين .

وهنا يبرز التساؤل: كيف أنزل الحديد؟ وما هو وجه المقارنة بين إنزال وحي السماء وإنزال الحديد؟ ما هو بأسه الشديد؟ وما هى منافعه للناس (١)؟

(١) حديد الأرض فى العلوم الكونية

قال زغلول النجار: بينما لا تتعدى نسبة الحديد فى شمسنا ٠,٠٣٧٪، فإن نسبته فى التركيب الكيمياءى لأرضنا تصل إلى ٩,٣٥٪ من مجموع كتلة الأرض المقدره بحوالى ستة آلاف مليون مليون مليون طن، وعلى ذلك فإن كمية الحديد فى الأرض تقدر بأكثر من ألفى مليون مليون مليون طن، ويتركز الحديد فى قلب الأرض، أو ما يعرف باسم «لب الأرض»، وتصل نسبة الحديد فيه إلى ٩٠٪ ونسبة النيكل (وهو من مجموعة الحديد) إلى ٩٪، وتتناقص نسبة الحديد من لب الأرض إلى الخارج باستمرار حتى تصل إلى ٥,٦٪ فى قشرة الأرض .

وإلى أواخر الخمسينيات من القرن العشرين لم يكن لأحد من العلماء إمكانية التصور (ولو من قبيل التخيل) أن هذا القدر الهائل من الحديد قد أنزل إلى الأرض من السماء إنزالاً حقيقياً!!! وكيف أنزل؟ وكيف تسنى له احتراق الغلاف الصخرى للأرض بهذه الكميات المذهلة؟ وكيف أمكنه الاستمرار فى التحرك بداخل الأرض حتى وصل إلى لبها؟ وكيف شكل كلاً من لب الأرض الصلب ولبها السائل على هيئة كرة ضخمة من الحديد والنيكل يحيط بها وشاح منصهر من التركيب نفسه، ثم أخذت نسبته فى التناقص باستمرار فى اتجاه قشرة الأرض الصلبة؟

= لذلك لجأ كل المفسرين للآية الكريمة التي نحن بصددنا إلى تفسير «... وأنزلنا الحديد...» بمعنى الخلق والإيجاد والتقدير والتسخير؛ لأنه لما كانت أوامر الله (تعالى) وأحكامه تلقى من السماء إلى الأرض جعل الكل نزولاً منها، وهو صحيح، ولكن في أواخر القرن العشرين ثبت لعلماء الفلك والفيزياء الفلكية أن الحديد لا يتكون في الجزء المدرك من الكون إلا في مراحل محددة من حياة النجوم تسمى بـ «العماليق الحمراء»، و«العماليق العظام»، والتي بعد أن يتحول لبها بالكامل إلى حديد تنفجر على هيئة المستعرات العظام، وبنافجارها تنتثر مكوناتها - بما فيها الحديد - في صفحة الكون، فيدخل هذا الحديد بتقدير من الله في مجال جاذبية أجرام سماوية تحتاج إليه مثل أرضنا الابتدائية التي وصلها الحديد الكوني وهي كومة من الرماد، فاندفع إلى قلب تلك الكومة بحكم كثافته العالية وسرعته المندفع بها، فانصهر بحرارة الاستقرار في قلب الأرض وصهرها، ومايزها إلى سبع أرضين!! وبهذا ثبت أن الحديد في أرضنا، بل في مجموعتنا الشمسية بالكامل قد أنزل إليها إنزالاً حقيقياً.

في دراسة لتوزيع العناصر المختلفة في الجزء المدرك من الكون لوحظ أن غاز الأيدروجين هو أكثر العناصر شيوعاً؛ إذ يكون أكثر من ٧٤٪ من مادة الكون المنظور، ويليه في الكثرة غاز الهيليوم الذي يكون حوالي ٢٤٪ من مادة الكون المنظور، وأن هذين الغازين - وهما يمثلان أخف العناصر وأبسطها بناءً - يكونان معاً أكثر من ٩٨٪ من مادة الجزء المدرك من الكون، بينما باقى العناصر المعروفة لنا وهي ١٠٣ عنصر تكون مجتمعة أقل من ٢٪ من مادة الكون المنظور، وقد أدت هذه الملاحظة إلى الاستنتاج المنطقي أن أنوية غاز الأيدروجين هي لبنات بناء جميع العناصر المعروفة لنا، وأنها جميعاً قد تخلقت باندماج أنوية هذا الغاز البسيط مع بعضها البعض في داخل النجوم بعملية تعرف باسم «عملية الاندماج النووي» تطلق منها كميات هائلة من الحرارة، وتتم بتسلسل من أخف العناصر إلى أعلاها وزناً ذرياً وتعقيداً في البناء.

فشمسنا تتكون أساساً من غاز الأيدروجين الذي تندمج أنويته مع بعضها البعض لتكون غاز الهيليوم، وتطلق طاقة هائلة، ويتحكم في هذا التفاعل (بقدرته الخالق العظيم) عاملان هما: زيادة نسبة غاز الهيليوم المتخلق بالتدريج، وتمدد الشمس بالارتفاع المطرد في درجة حرارة لبها، وباستمرار هذه العملية تزداد درجة الحرارة في داخل الشمس تدريجياً، وبازديادها ينتقل التفاعل إلى المرحلة التالية التي تندمج فيها نوى ذرات الهيليوم مع بعضها البعض منتجة نوى ذرات الكربون ١٢، ثم الأكسجين ١٦، ثم النيون ٢٠، وهكذا.

وفي نجم عادي مثل شمسنا التي تقدر درجة حرارة سطحها بحوالي ستة آلاف درجة مئوية، وتزداد هذه الحرارة تدريجياً في اتجاه مركز الشمس حتى تصل إلى حوالي ١٥ مليون درجة مئوية، يقدر علماء الفيزياء الفلكية أنه يتحول نصف كمية الأيدروجين الشمسي تقريباً إلى الهيليوم، فإن درجة الحرارة في لب الشمس ستصل إلى مائة مليون درجة مئوية، مما يدفع بنوى ذرات الهيليوم المتخلقة إلى الاندماج في المراحل التالية من عملية الاندماج النووي مكونة عناصر أعلى في وزنها الذري مثل الكربون، ومطلقة كما أعلى من الطاقة، ويقدر العلماء أنه عندما تصل درجة حرارة لب الشمس إلى ستمائة مليون درجة مئوية، يتحول الكربون إلى صوديوم ومغنيسيوم ونيون، ثم تنتج عمليات الاندماج النووي التالية عناصر الألومنيوم، والسيليكون، والكبريت، والفوسفور، والكلور، والأرجون، والبوتاسيوم، والكالسيوم على التوالي، مع ارتفاع مطرد في درجة الحرارة حتى تصل إلى ألفي مليون درجة مئوية حين يتحول لب النجم إلى مجموعات التيتانيوم، والثاناديوم، والكروم، والمنجنيز، والحديد (الحديد والكوبالت والنيكل) ولما كان تخليق هذه العناصر يحتاج إلى درجات حرارة مرتفعة جداً لا تتوافر إلا في مراحل خاصة من مراحل حياة النجوم تعرف باسم «العماليق الحمراء» و«العماليق العظام» وهي مراحل توهج شديد في حياة النجوم، فإنها لا تتم في كل نجم من نجوم السماء، ولكن حين يتحول لب النجم =

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ يُظهر الله إلى عالم الشهادة، وليعرف الناس من ينصر الله بالغيب. قال محمد الغزالي: [سورة الحديد تنبه إلى أن المسلمين شركاء في سباق عالمي محوم لا ينجح فيه إلا من استعد له وتهيأ لمراحلته وقدر الفروق بين خطواته وخطوات خصومه، لقد خلق الله الحديد ذا خصائص عظيمة في صناعات الحرب والسلام معاً، فهل درسنا هذه الخصائص وانتفعنا بها في نشاطنا المدني والعسكري؟ وأرينا الله من نشاطنا ما يرضيه؟ إن أمتنا الإسلامية عالية على غيرها في ذلك الميدان، فلما أردنا أن نصنع شيئاً تجهنا

= إلى الحديد فإنه يستهلك طاقة النجم بدلاً من إضافة مزيد من الطاقة إليه؛ وذلك لأن نواة ذرة الحديد هي أشد نوى العناصر تماسكاً، وهنا ينفجر النجم على هيئة ما يسمى باسم «المستعر الأعظم» من النمط الأول أو الثاني، حسب الكتلة الابتدائية للنجم، وتتناثر أشلاء النجم المنفجر في صفحة السماء لتدخل في نطاق جاذبية أجرام سماوية تحتاج إلى هذا الحديد، تماماً كما تصل النيازك الحديدية إلى أرضنا بملايين الأطنان في كل عام.

ولما كانت نسبة الحديد في شمسنا لا تتعدى ٠,٠٣٧٪ من كتلتها، وهي أقل بكثير من نسبة الحديد في كل من الأرض والنيازك الحديدية التي تصل إليها من فسحة الكون، ولما كانت درجة حرارة لب الشمس لم تصل بعد إلى الحد الذي يمكنها من إنتاج السيليكون، أو المغنسيوم، فضلاً عن الحديد، كان من البديهي استنتاج أن كلاً من الأرض والشمس قد استمد ما به من حديد من مصدر خارجي عنه في فسحة الكون، وأن أرضنا حينما انفصلت عن الشمس لم تكن سوى كومة من الرماد المكون من العناصر الخفيفة، ثم رجمت هذه الكومة بوابل من النيازك الحديدية التي انطلقت إليها من السماء فاستقرت في لها بفضل كثافتها العالية وسرعاتها الكونية فانصهرت بحرارة الاستقرار، وصهرت كومة الرماد ومايزتها إلى سبع أرضين: لب صلب على هيئة كرة ضخمة من الحديد (٩٠٪) والنيكل (٩٪) وبعض العناصر الخفيفة من مثل الكبريت، والفوسفور، والكربون (١٪)، يليه إلى الخارج لب سائل له نفس التركيب الكيميائي تقريباً، ويكوّن لب الأرض الصلب والسائل معاً حوالي ٣١٪ من مجموع كتلة الأرض، ويلى لب الأرض إلى الخارج وشاح الأرض المكون من ثلاثة نطق، ثم الغلاف الصخري للأرض، وهو مكون من نطاقين، وتتناقص نسبة الحديد من لب الأرض إلى الخارج باستمرار حتى تصل إلى ٥,٦٪ في قشرة الأرض، وهي النطاق الخارجي من غلاف الأرض الصخري.

من هنا ساد الاعتقاد بأن الحديد الموجود في الأرض والذي يشكل ٩,٣٥٪ من كتلتها لا بد أنه قد تكون في داخل عدد من النجوم المستعرة من مثل «العماليق الحمراء»، و «العماليق العظام»، والتي انفجرت على هيئة المستعرات العظام فتناثرت أشلاؤها في صفحة الكون، ونزلت إلى الأرض على هيئة وابل من النيازك الحديدية، وبذلك أصبح من الثابت علمياً أن حديد الأرض قد أنزل إليها من السماء، وأن الحديد في مجموعتنا الشمسية كلها قد أنزل كذلك إليها من السماء، وهي حقيقة لم يتوصل العلماء إلى فهمها إلا في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، وقد جاء ذكرها في سورة الحديد، ولا يمكن لعاقل أن يتصور ورودها في القرآن الكريم الذي أنزل منذ أكثر من أربعة عشر قرناً على نبي أمي (ﷺ) وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، يمكن أن يكون له من مصدر غير الله الخالق الذي أنزل هذا القرآن بعلمه، وأورد فيه مثل هذه الحقائق الكونية لتكون شاهداً إلى قيام الساعة بأن القرآن الكريم كلام الله الخالق، وأن سيدنا محمداً (ﷺ) «ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى» «تفسير الآيات الكونية في القرآن» الجزء الرابع، صفحات ١٣٩-١٤٣ - مكتبة الشروق الدولية.

إلى صناعة أسياخ نسلخ بها المباني لا إلى أسلحة نحمل بها الحق ونصون العقائد! فكيف يسود الأرض من لا يعي شيئاً من قوانينها؟^(١).

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ (٢٦) ثم قمنا على آثارهم برسلنا وقمينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين أتبعوه رافةً ورحمةً ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ﴾ (٢٧)

أرسل الله نوحاً وإبراهيم - صلى الله عليهما وسلم - رسلاً لقوميهما، وجعل في ذريتهما أنبياء أنزل عليهم كتبه، من توراة لزيور لإنجيل لقرآن ﴿ فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ قال بعض المفسرين: فمن أقوامهم من اهتدى، وكثير منهم عصاة، وقال البعض الآخر: إن الضمير يعود على الذرية وعلى الأقوام ﴿ ثم قمنا ﴾ تابعنا ﴿ على آثارهم ﴾ من بعدهم ﴿ برسلنا ﴾ مثل يعقوب وموسى وداود، صلى الله عليهم وسلم ﴿ وقمنا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين أتبعوه رافةً ورحمةً ﴾ وبعدهم جاء عيسى ابن مريم (ﷺ)، وآتاه الله الإنجيل، وجعل الله في قلوب من اتبعه حق الاتباع رافةً ورحمةً، واتبع فريق منهم ﴿ رهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ رهبان هي صيغة فعلان من رهب، وهي جمع راهب، وراهب أى خائف من الله، وقد ابتدع فريق من آباء الكنيسة أفكاراً ونظماً للمعيشة على أساس أن الجسد شرٌ ويجب إماتته واحتقار طلباته، من طعام وشراب ولباس، إلى زواج وما غير ذلك، فجاءت أفكارهم ضد الفطرة، ولذلك فسق كثير ممن فرضوا ذلك على أنفسهم، قديماً وحديثاً ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ ما فرضوها على أنفسهم إلا ابتغاء رضوان الله، ولكنهم ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ لم يصبروا عليها؛ لأنها تخالف فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴿ فاتينا الذين آمنوا منهم ﴾ الذين آمنوا الإيمان الخالص من شوائب الشرك ﴿ أجرهم ﴾ الذى يستحقونه ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ .

(١) ونضيف للغزالي - رحمه الله - أن الولايات المتحدة وأوروبا يعملان المستحيل لمنع الدول العربية والإسلامية من تصنيع السلاح، ويريدان احتكار تسليحها حتى تصبح تحت تحكمهما وسيطرتها، ويعملان المستحيل لنزع سلاح كل من لا يرضخ لهما، فى الوقت الذى تنفق فيه الولايات المتحدة تريليونات الدولارات فى التسليح، وفى الأبحاث العلمية فى كل مجالات التكنولوجيا حتى تسبق العالم فى السلاح، ومن تلك الأبحاث، تتقدم الصناعات المدنية الأمريكية فى مختلف المجالات، فى علوم الحاسبات والشبكة والاتصالات، وعلوم الطيران والفضاء، وعلوم الأدوية والطب والكيمويات، وغيرها .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٨) لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢٩)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ من أهل الكتاب ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ نصيباً لإيمانكم بالرسول السابقين، ونصيباً لإيمانكم بخاتم النبيين ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ في حياتكم الدنيا وفي الآخرة، ويغفر لكم ذنوبكم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ولقد كان أهل الكتاب يرون أن الله فضلهم على جميع الخلق، فقال تعالى ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ حتى يعلم أهل الكتاب أن فضل الله ليس مضموناً لديهم ولا حكراً عليهم كما يقولون وكما يحبون، إنما ﴿ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ من آمن برسوله وعمل صالحاً، وليس من تعصب وحسد ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .
